AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01039 9008

Library of
The American University
at Cairo

Happy is the man that findeth wisdom and the man that getteth understanding

PROVERBS 3-13

libris datis
memoriam
olk McKinney
gh, Pennsylvania

084 B97.738

دزرائيلى

DA
564
B3
B3X

تأليف

دكتور راشد البراوى

مدرس التاريخ السياسى والاقتصادى
بكلية التجارة (جامعة فؤاد الأول)

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا تليفون ١٣٩٤ ٥

مطبعة الاعتماد بمصر

مقدمة الكتاب

هذه قصة حياة دزرائيلى السياسى الذائع الصيت ، الذى شق طريقه إلى المجد ، متخطياً كافة الصعاب والعقبات ، وقام بدور سجله له التاريخ بمداد التقدير . ولكنا نقدم للقارىء قصة أخرى لا تقل روعة وجلالا . فقد ولد دزرائيلى فى مستهل القرن التاسع عشر ، ومات قبل انتهائه بقليل . وخلال هذه الفترة الطويلة مرت بالبلاد أحداث على أعظم قدر من الأهمية والخطر . فتحولت انجلترا إلى مصنع يمون العالم بما يحتاجه ، وبدا أثر الثورة الصناعية واضحاً فى قيام معسكرى الرأسمالية والعمالية ، وعدلت البلاد سياستها التجارية ، وشهدت إصلاحاً نيابياً سار بها خطوات واسعة صوب الديموقراطية ، واتسعت الإمبراطورية البريطانية واستحدثت أسلوباً جديداً فى الحكم والاستعمار . عاصر دزرائيلى هذه التطورات جميعها ، وساهم فيها مؤيداً ومعارضاً ، ومحبذاً وناقداً . فالكتاب إذن عرض موجز لتطورات الحياة والنظم الإنجليزية فى القرن الماضى .

وقد حاولنا أن نجعل له طابعاً تهذيبياً ، لأننا نكتب للشباب

الذى نؤمن به . سيرى القارىء زعيما يحطم وحدة حزبه فى سبيل المصلحة العامة ، ونائباً يخرج على زعيمه دفاعاً عما اعتقده يتفق مع الصالح القومى ، وزعيما يكرس حياته لتربية الحزب وتهذيبه حتى يساير الزمن ، ويخلع عن نفسه رداء المحافظة والجمود .

على ضوء هذه المبادىء ، نقدم كتابنا إلى القارىء العربى ، الذى يشعر بحاجته إلى أوثق المعلومات وأدقها ، بدون أن يتسع وقته للرجوع إلى المطولات والمصادر الأصلية المتشعبة . وبهذا نؤدى ناحية من واجب على عاتقنا ، إذ على رجال الجامعة أن يطلوا ، أو يخرجوا من البرج الذى يعيشون فيه .

وإنا لنرجو أن نكون قد وفقنا إلى الاقتراب من الهدف الذى جعلناه نصب أعيننا ، فما خلق الفرد الكامل ، ولن يخلق ، وإلا توقف سير القافلة الإنسانية ؟

راشد البراوى

كلية التجارة
مايو ١٩٤٥

محتويات الكتاب

صفحة

الفصل الأول : اليهودى الصغير ١

« الثانى : ذهب مع الريح ١٠

« الثالث : الاستقلال عن الأحزاب ١٨

« الرابع : عضو البرلمان ٢٧

« الخامس : سقوط حكومة الهويج ٣٨

« السادس : الخيانة العظمى أودزرائيلى وروبرت بيل ٤٩

« السابع : الزعيم ٦١

« الثامن : وزارة المالية ٧٣

« التاسع : وزارة درب الثانية ٨٩

« العاشر : فوزمزدوج (قانون ١٨٦٧ — رآسة الوزارة) ١٠٤

« الحادى عشر : فراغ ١١٨

« الثانى عشر : فى سبيل الإمبراطورية ١٢٥

« الثالث عشر : السلم مع الشرف ١٣٢

« الرابع عشر : نهاية قصة ١٣٩

ثبت بالمصادر ١٤٣

الفصل الأول

اليهودى الصغير

فى عام ١٧٤٨ غادر بنيامين إسرائيلى أو دزرائيلى موطنه بإيطاليا كى يتخذ من البلاد الإنجليزية وطناً له ، ينعم فى ظلاله بما يكفله الدستور البريطانى من الحرية الدينية ، وليستفيد بما تهيئه الحياة الإنجليزية من فرص النجاح وظروف التوفيق فى ميدان التجارة . وما كان له أن يعلم ما يخبىء الدهر لأسرته ، وما يعده القدر لحفيده من مجد عظيم يخلد اسم الأسرة .

ويجد صاحب الترجمة لذة نفسية وسروراً باطنيا فى الحديث عن أسلافه وتاريخهم القديم . وهو إذ يحدثنا عنهم وعن تاريخهم إنما يروى لنا قصة هى مزيج من الواقع والخيال ، ويعرض لنا لوناً من ألوان الاضطهاد الذى أصاب شعب إسرائيل من عصر إلى عصر ، ومن بلد إلى بلد . ونعلم من روايته أن الجالية اليهودية بأسبانيا عاشت فى سلام ورخاء حتى اعتنق الرومان المسيحية ، فتبدل الحال غير الحال ، وتحول التسامح إلى اضطهاد . ثم زاد الأمر حرجاً وخطرا حين دانت البلاد للقوط الغربيين فى القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد ، وهنا التمس اليهود

النجدة من العرب . فعبر طارق بن زياد المضيق الذى يحمل اسمه وأخضع البلاد لسلطان المسلمين . وفى ظل العهد الجديد عاش اليهود جنباً إلى جنب مع الفاتحين ترفرف على الجميع راية تعاليم الإسلام السمحاء ، وتظلهم قوانين وشرائع روحها العدالة ، وتسودهم المساواة التى تسمو على فوارق الجنس واختلافات الدين ، إذ لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، ولكم دينكم ولى دين . ومن الطبيعى أن يزداد نشاط الجالية اليهودية ، ومن المعقول أن يعظم ثراؤها ، وأن يشغل أفرادها أرقى المناصب . غير أن النكبة ما لبثت أن حلت بسقوط دولة العرب ، فعادت البلادمن جديد إلى سلطان المسيحية تصحبها قسوة محاكم التفتيش . وخير أفراد الجالية بين نبذ دين إله إسرائيل أو النفى والتشريد . فغلبت المادية والسلامة على فريق ، وآثر الفرار مع العقيدة فريق آخر توجه نفر منه إلى إيطاليا أو بالأحرى إلى جمهورية البندقية . ومن سلالة هؤلاء اللاجئين بنيامين إسرائيلى . هذا مايقصه علينا السياسى الكبير . غير أن البحث العلمى الذى توافر عليه الكثيرون لا يدعم روايته بالأسانيد الصحيحة . بل لا يؤيد أسطورة إقامة الأسرة فى البندقية . وأكثر من هذا نستطيع أن نجزم أن جد الأسرة كان من أهل فرارا ، حيث أقامت بها جالية يهودية من أصل شرقى ، وفدت إليها قبل عهد الاضطهاد الذى تعرض له يهود أسبانيا فى أيام الملك فرديناند والملكة إيزابلا .

أقام الجد فى انجلترا واشتغل كاتباً فى أحد البيوت المالية ، ثم استقل بالعمل واشتغل بالتجارة ودخل ميدان المضاربة ، فلقى نجاحا وصادف توفيقا ، وبخاصة بعد زواجه حتى أنه خلف ثروة قدرت بخمس وثلاثين ألف من الجنيهات ، وهذا مبلغ كبير بمعايير ذلك العصر على مهاجر فقير . وقد تزوج فى عام ١٧٦٥ من سيدة تنتمى إلى إحدى تلك الأسر اليهودية التى قاست من الإضطهاد صنوفا ، فولد ذلك فى نفسها شعوراً قويا من السخط والاستياء . لقد كان لها من جمالها ومالها وقوة شخصيتها ما يؤهلها لمركز فى المجتمع المهذب ، ولكن حال دون ذلك الدين الذى نشأت فى أحضانه . فاشتد بها السخط ، وودت لو أنها كانت مسيحية . وعظم بها النفور إذ تزوجت من رجل ينم اسمه ويفصح عن هذا الدين الكريه إلى نفسها . وتستطيع أن تلمس الفارق بين الزوجين : فالجد ، كما وصفه حفيده الأشهر ، رجل متين الخلق ، شديد التفاؤل ، شجاع لا يؤثر فيه الإخفاق ، واسع الحيلة لا يتقهقر أو يتراجع أمام معاكسات الأيام . وهو إلى جانب ذلك راض عن عقيدته ، على وفاق مع شيوخ الطائفة ، يساهم فى أمورها بقدر من ماله . أما الجدة فبرمة ساخطة ، أو هى شيطان لا تدانيها سوى ساره دوقة ملبرو أو ربما كاترين قيصرة الروسيا .

وفى عام ١٧٦٦ ولد لهما إسحاق . وهو طفل شاحب اللون ،

شديد الميل إلى حياة التأمل، عظيم الخجل، يجد الراحة فى الانفراد والوحدة. خير مكان يأوى إليه دار للكتب، وخير رفيق يأنس إليه الكتاب. فلا عجب إذن أن استشعرت أمه باليأس من ناحيته ومن ناحية مستقبله، فالصبى لا يبشر بالنجاح والتوفيق فى ميدان الأعمال والتجارة. وهنا استقر الرأى على إرساله إلى صديق للأسرة فى مدينة أمستردام، فأقام ثلاث سنوات أكب خلالها على الدرس والقراءة وشغف بمؤلفات ڤولتير وتشبع بآراء روسو وسواه من كتاب القرن الثامن عشر وفلاسفته من ذوى التفكير الحر الثائر على الجمود، الخارج على التقاليد البالية. وعاد الصبى إلى انجلترا وحاول أبوه أن يوجهه شطر التجارة. وكم تكشفت الحقيقة المؤلمة حين علم أن الصبى يعد قصيدة يحمل فيها على هذه الحرفة ويحملها تبعة إفساد الجنس البشرى. مرة أخرى يبعثون بالشاب الصغير إلى فرنسا، ومرة أخرى يستغل الفرصة فيتصل بذوى الفكر ويغشى دور الكتب. وأخيراً غادر باريس قبيل أن تبدأ تلك الأحداث التى ولدت الإنفجار الهائل ونعنى بذلك الثورة الفرنسية. لقد رجع إسحاق قليل المعرفة بالحياة واسع الدراية بالكتب، ووضح بما لا يحتمل اللبس والإبهام أن صاحبنا قد وقع اختياره على الأدب حرفة وهدفاً له فى الحياة، وكان كما وصفه ابنه من بعد، شخصية أدبية كاملة، ورجلا قضى حياته فى

مكتبته . . فى لندن كانت تسليته الوحيدة أن يتجول لدى باعة الكتب ، وإذا دخل ناديا فبقصد الذهاب إلى مكتبة النادى ، وإذا أقام بالريف قلما غادر غرفته » . وفضلا عن هذا كان من الطراز الهادىء الطباع ، لم تحركه أو تثيره الأحداث الهائلة التى حركت أوربا فى تلك الفترة من تاريخها ، ولذا لا نجد فى مراسلاته إشارة إلى تلك الأحداث التاريخية التى غيرت مجرى سير الإنسانية . ولا ريب أنه فى هذا جد مخالف لابنه من بعده . غير أننا قد نكشف فى الإبن ، الذى شق طريقه إلى المجد وسط العواصف والأعاصير ، ميلا إلى الترفع والعزلة ، وإن خفى ذلك الميل تحت ستار الطموح ، وبفضل ما كان عليه من قوة الإرادة .

ولما أدرك إسحاق الخامسة والعشرين من العمر أخرج إلى عالم النشر كتابا دعاه « عجائب الأدب » ، فلقى رواجا سريعا ثم أعقبه بغيره ، ويبدو أنه كانت تجيش فى صدره رغبة ملحة فى أن يضع تاريخا للأدب الإنجليزى . وكتب كذلك عن جيمس الأول مدافعا عن ذلك الذى لم ينصفه المؤرخون . ومن الثابت أن هذه المؤلفات أكسبته شهرة واسعة ، وسمعة عالية فى الأوساط الأدبية ، وجعلت له معجبين وأصدقاء من أمثال والتر سكوت وبيرون . وبرغم هذه الصلة الأدبية وهذه العلاقة المبنية على الإعجاب المتبادل ، فإن الرجل كان يعيش بنظرات القرن الثامن عشر وأهدافه ومثله ، ولذا لم يكن ممن يميلون إلى حركة

الرومانتيسزم Romanticism التى تميز بها القرن التاسع عشر ، والتى يمثلها لنا سكوت وسوثى وبيرون وشلى .

وقد تزوج إسحاق من ماريا باسيڤى Maria Basevi صغرى بنات أحد اليهود الطليان وكان قد وفد إلى انجلترا حوالى منتصف القرن الثامن عشر . وكانت زوجة صالحة ، مكبة على عملها ، مخلصة لزوجها ، محبة لأطفالها ، وإن كان أثرها ضئيلا فى تكوين شخصياتهم .

فى وسط هذا الجو وفى أحضان هذه البيئة خرج بنيامين إلى العالم فى منتصف الساعة السادسة من صباح يوم الجمعة ٢١ ديسمبر سنة ١٨٠٤ وكانت قد سبقته إلى الحياة أخته ساره قبل ذلك بعامين . وبين الإثنين شبه كبير من حيث الإرادة القوية والنظرة المتفائلة وحسن الإدراك . ولذا توطدت بينهما صلة روحية قوية ، ولا عجب أن شعر السياسى الكبير بالأسف الشديد يوم تحقق أمله وصار رئيسا لوزارة الإمبراطورية البريطانية لان أخته ساره لم تكن على قيد الحياة تهنئه وتباركه وتفرح له وتدعو له بالتوفيق !

ولما بلغ الطفل السادسة من عمره ألحقه أبوه بمدرسة فى إسلنجتن (Islington) تديرها الآنسة روبر (Miss Roper) . وبعد أن قضى فترة من الوقت انتقل إلى مدرسة أخرى يشرف عليها أحد رجال الدين المستقلين وهو جون بوتيكانى . وتسود

مدرسته الآراء الحرة ولذا لم يرغم الطفل على حضور الصلاة مع زملائه المسيحيين ، بل كان مصرحا لأحـــد رجال الدين الإسرائيليين بالتوجه إلى تلك المدرسة فى أيام السبت ليلقن بنيامين وزميلا آخر له أصول ذلك الدين وطقوسه ورسومه . وليست لدينا معلومات وافية تلقى الضوء الـكافى على الطفل وأخلاقه . وكل ما نعلم عنه أنه كان مغرما إلى حد كبير بقصص اللصوص والمغامرات . شديد الميل إلى الروايات التى يرتع فيها الخيال، مليئا بروح الدعابة والمرح. ونعلم أن كتابيه Vivian Grey ، Contarini Fleming أشبه بقصة حياته يرويها لنا فى قالب روائى وأنه فى هذين الـكتابين يصف أبطاله بأنهم امتازوا فى صغرهم بالعنف مع العطف على الغير ، وأنهم حاولوا تزعم أترابهم فى المدرسة وإن بدا عليهم أحيانا ميل قليل إلى الوحدة والانفراد فضلا عن أنهم كانوا ممن يسبحون فى عالم الأمانى والأحلام ، ويقيمون قصوراً شاهقة فى الهواء . ويحدثنا أخ لبنيامين أن الطفل كثيراً ما تخيل نفسه من أعضاء البرلمان البارزين ويتحدث بلسان الحـكومة !

غير أن إقامته فى هذه المدرسة كانت لها صورة أخرى قائمة فى نفسه . فهو يتكلم الإنجليزية ويكتب بها ، وهو أشد ذكاء وأوفر علما من زملائه . ومع ذلك فإنهم لا يعدونه إنجليزيا مثلهم ! وهو لا يشترك معهم فى الصلوات ، وهو كذلك ينفرد

عنهم فى يوم السبت من كل أسبوع فى صحبة زميل كريه إلى نفسه. هذا كله بعثه على التفكير! بل إنه كان يحدث أخته ساره فى نفس الأمر وكلاهما فى عجب مقرون بالألم والمرارة، لأن هذا الدين الذى يضعهما فى ذلك الوضع قد فرض عليهما فرضاً بحكم الوراثة، وليس لهما دخل فى الأمر شأنهما فى ذلك شأن بقية الأطفال.

وأخيراً فى عام ١٨١٦ حدث أمر ستبدى الأيام أهميته القصوى، إذ مات الجد. وهنا يقع التحول فى مجرى حياة الأسرة. لقد كان إسحاق — بخلاف أبيه — لا يؤمن كثيراً فى قرارة نفسه بتلك الطقوس التى يمتاز بها دين إسرائيل، وينفر من رسومه الجامدة. وليس هذا بغريب عليه وهو من تلاميذ مدرسة ڤولتير بصفة خاصة. ولم يكن يتصل بأفراد الطائفة ورؤسائها الروحانيين بخلاف أبيه. ولكن تصادف أن نشب بينه وبينهم نزاع ففرضوا عليه غرامة قدرها أربعون جنيها أبى دفعها. وقفت الأمور عند هذا الحد، فلما عاد مجلس الطائفة بعد سنوات يطالبه بالدفع عظم استياؤه وهنا أشار عليه صديقه المؤرخ شارون تيرنر أن يتحول إلى المسيحية وأقنعه أن ذلك فى صالح الأولاد. عمل الوالد بالنصيحة. وبذا بدت احتمالات المستقبل لامعة.

انتقل الصغير إلى مدرسة أخرى. وهنا دخلها وقد نبذ ذلك

الدين الذى يجعله غريبا عنهم وما لبث أن أثبت تفوقه على سواه بفضل معلوماته الوفيرة وأصبحت أقواله وأمثاله على كل لسان، وأحاطت به فئة من التلاميذ كأنما تعده زعيما لها وتستمد منه الوحى والإلهام. غير أن هذا المركز الممتاز أحفظ عليه قلوب عرفاء المدرسة الذين أدركوا أن هذا الدخيل خطر على سلطانهم ونفوذهم. أما هو فلم يعبأ بالأمر أو قل لم يخطر له على بال. وكان إذا تمشى خيل إليه أنه قائد جيش عظيم أو رئيس للوزارة. اشتدت غيرة العرفاء، وصمموا على النضال. وهنا سخر أحدهم منه واشتبك الصغيران فى معركة حامية أشفق زملاء بنيامين والمعجبون به عليه من عاقبتها. ولكنا نرى فى هذه المعركة المدرسية البسيطة صورة مصغرة من السياسى القوى المناضل. فقد انتهت بفوز دزرائيلى الصغير مما كان مثار الدهشة. وكيف تم هذا؟ وكيف استطاع أن يغلب غريماً أكبر منه سنا وأوفر قوة؟ لأنه كان يقاتل بطريقة علمية وبشجاعة هائلة! إن بنيامين الطفل، كدزرائيلى السياسى، لا يناضل إلا بعد أن يتخذ أهبته للمعركة. وكان بنيامين الطفل قد تمرن على الملاكمة ثلاث سنوات قبل ذلك اليوم. وحققت نتيجة المعركة بعد نظره. غير أن الفوز كان له ثمنه، ذلك أن مدير المدرسة رجا إسحاق أن يصحب ابنه معه لأن بيئة المدرسة وتقاليدها ليست له!

الفصل الثانى

ذهب مع الريح

خرج دزرائيلى من المدرسة فى سن الخامسة عشرة لايدرى ماذا يفعل لأنه لا يعلم غايته فى الحياة على وجه التحديد . فقضى وقتاً يحاول تثقيف نفسه واكتساب المعلومات ، ووجد فى مكتبة والده الثمينة ما يروى غلته ويشبع نهمه ، وأخيراً أشير على أبيه أن يلحقه بمكتب أحد المحامين . ولما عرضت الفكرة على بنيامين سخر منها ، لأن معنى هذا أن يتنازل عن أمله فى أن يكون من عظماء الرجال . ولكن أباه حذره من العجلة ، وأبان له أنه إذا كان يسعى إلى المجد فعليه أن يزيد درايته بأخلاق الناس وطباعهم وأقنعه أن عمله الجديد قمين أن يهيء له سبيل تلك المعرفة . اقتنع الإبن وقبل العمل الجديد ، وهناك فى داخل حجرات المكتب وفى السجلات المكدسة مرت أمامه صور متباينة وتكشفت له أخلاق وصفات ، وهكذا وجد النافذة التى يطل منها على جانب من ذلك المجتمع الذى يسعى إلى السيطرة عليه . وفى أثناء العمل تعرف إلى زميله ايڤانس كما استطاع أن يلمس بعض نواحى عالم المال وأن يشهد بعينيه كيف تقتنى الأموال وكيف تتضخم

الثروات ، وكيف يحصل بعض الأفراد على القوة الإقتصادية أو السلاح السحرى الذى يأتى إليهم بالنفوذ والسلطان .

وكانت المضاربة فى أسهم مناجم المستعمرات الإسبانية بأمريكا قد بلغت غايتها ، وتملكت القوم روح المغامرة . وخيل إلى الكثيرين أن استغلال هذه المستعمرات سينقلهم من الفقر إلى الثراء ووجدوا مشجعاً فى سياسة وزير خارجيتهم كانتج الذى اتجهت أعماله صوب غاية واحدة هى تحقيق استقلال هذه الممتلكات الثائرة حتى يحول بين فرنسا أو غيرها وبين التدخل فى شؤون العالم الجديد حيث لانجلترا مصالح اقتصادية كبيرة . انتهز دزرائيلى وزميله الفرصة ودخلا فى ميدان المضاربة أسوة بغيرهما ، فخانهما التوفيق وخرجا من الأمر وقد تكبدا خسائر فادحة . وفى تلك الأثناء تعرف دزرائيلى إلى باولس Powles أحد كبار رجال المال . واستطاع هذا الأخير أن يكشف مواهب الشاب فأراد أن يستغلها أحسن استغلال . ذلك أن ارتفاع درجة حمى المغامرة جعل الكثيرين يوجسون خيفة من العواقب ويتوقعون أن يعقب ذلك انهيار مفاجىء يذهب بأموال الناس . وعلت صيحة تدعو إلى ضرورة تدخل الحكومة قبل أن تحل الكارثة . ولكن هـذا التدخل يحد بطبيعة الحال من نشاط الشركات والمؤسسات التى تسمن على اتجاه الجمهور والتى لايضيرها أعاد الأمر بالغنم أم بالغرم على صغار المستثمرين ، وهنا عهد

باولس إلى دزرائيلى أن يضع كتيبا يوضح أمر هذه المشروعات القائمة فى العالم الجديد . ودزرائيلى قليل الدراية — إن لم يكن عديمها — بهذه المسائل الهندسية والفنية . ولكنه أقبل على العمل بكل ما أوتى من قوة وحماس ، واستطاع بعد قليل أن يحمل الناشر موراى أن يخرج له مؤلفه الصغير الذى لقى نجاحاً كبيرا وصدرت منه بضع طبعات فى فترة وجيزة . ولا ريب أن هذا النجاح مرده إلى متانة أسلوب الكاتب وحججه القوية وعباراته الرنانة وألفاظه الحماسية . وقد حمل فيه على سياسة التدخل وخاطب المسئولين ألا يقرروا أمراً إلا بعد الدراسة الوافية ، ونصحهم ألاّ يتأثروا بروايات ومخاوف لانصيب لها من الصحة ، وألا يصدروا تشريعات تحد من حرية هذه المشاريع أو تمنعها .

لم يقف الأمر عند هذا الحد بل إنه تابع ذلك بمؤلفات من نفس الطراز وبنفس الأسلوب ، وإن كانت جميعها قد نشرت دون أن تحمل اسم واضعها . وكان للناشر موراى مجلة تدعى Quarterley Review ولكنه يطمع أن يصدر صحيفة يومية على غرار التيمس ولها نفس المكانة فى المجتمع الإنجليزى . وقد فاتح دزرائيلى الذى تحمس للفكرة ، وداعب خياله مشروع إنشاء صحيفة يومية كبرى تنطق بلسان حزب المحافظين . أليس هذا ما يتمناه ؟ أليس هذا سبيل الشهرة وطريق المجد ؟ ولكن موراى معروف بتردده . غير أن التردد تضاءل ثم زال إزاء حماسة

دزرائيلى وحججه وبراهينه وأسلوبه فى الإقناع ، وهنا تبدأ مرحلة العمل الجدى لإخراج المشروع إلى حيز التنفيذ ، وصار من المتعين اختيار رئيس للتحرير له سمعة تكفل النجاح ، ووقع الاختيار على لوكهارت زوج ابنة الكاتب الكبير سير والترسكوت ، وعهد إلى دزرائيلى بمهمة إقناع الرجل . فلم يتردد أو ينكص على عقبيه بل سافر توا إلى أبوتسفورد حيث استقبله لوكهارت الذى لم يكن ليخطر فى باله أن زائره هو ذلك الشاب الذى كان يتحدث على شاكلة من يكبره بعشر سنوات . طرق دزرائيلى الموضوع وأقام هيكلا ضخما من الفكرة ، وحلق عاليا فى عالم الآمال وأبرز من المشروع غاية سامية ، ولم يدع اعتراضا الا واجهه أو حجة إلا قرعها بمثلها حتى تغلب فى النهاية على تردد مضيفه ، وفى خلال إقامته التى طالت إلى ثلاثة أسابيع تعرف إلى سير والتر سكوت الذى أعجب به إعجاباً كبيرا . وفى الحق لقد استحوذ الشاب على أفئدة الجميع وسحرهم بلباقته وحسن بيانه ، وقضى فترة من أسعد الأوقات ينصت إلى الروائى الخالد الذكر ويشنف سمعه بالأغانى تعزفها ابنته ، وأخيراً تم الاتفاق على أن يتولى لوكهارت رياسة تحرير المجلة والصحيفة اليومية مقابل أجر قدره ألفان وخمسمائة من الجنيهات فى السنة . قفل دزرائيلى راجعا إلى لندن ، فخوراً أن وفق فى أداء مهمته ، مزهوا بما تراءى أمام عينيه من صور وخيالات . ولم يضع وقتاً فى الإعداد فاستأجر مكتباً ودارا

للطباعة . . . لقد أصبح كل شيء على تمام الأهبة : المكان فى حى معروف ، ورئيس التحرير من ذوى الشهرة ، والمال سيقدم موراى نصفه ويؤدى النصف الآخر باولس ودرزائيلى وإن كان الأخير لا يدرى كيف يدبر نصيبه . يا له من أمل سرعان ما تحطم ! ويالله من حلم ليلة صيف تبدد ! لقد وقعت الواقعة التى أنذر بها الكثيرون وحلت الكارثة المالية بانهيار سوق الأوراق المالية وهبطت أسعار الأسهم والسندات الأمريكية وضاعت ثروة باولس ، أما موراى فقد تعرض للسخط من جانب أحد عملائه الذى اتهمه بالعمل دون استشارته . وعلى هذا النحو أخفق المشروع .

تحطمت آمال الشاب وذهبت مع الريح ولم تفده كذلك مؤلفاته عن الشركات إذ أفقدته المضاربة سبعة آلاف من الجنيهات وخرج من العملية مثقلا بديون باهظة . . يا لقسوة الحياة ! ويا لسخرية القدر ! أليس من الخير أن يخرج من هذا العالم الذى لم ينله منه سوى الألم ؟ لقد فكر فى هذا فعلا . ولكنه عدل . لقد ذاق مرارة الخيبة فى اللحظة الحاسمة التى خيل إليه فيها أنه يوشك أن يجتاز باب النجاح ، إنه درس قاس ولكنه ضرورى لكل من يريد أن يشق طريقه فى الحياة . لقد تعلم وزرائيلى ولن ينس ما علمته الأيام .

ما الذى يعمله الآن وقد فقد أصدقاءه وماله وسمعته وآماله ؟ ليكتب إذن قصة بطلها يشابهه من حيث النشأة والغاية والجهد

والنهاية . وهكذا خرج على الناس بعد أربعة أشهر روايته ڤيڤيان جراى (Vivian Grey) ، وكان ڤيڤيان جراى بطل الرواية إبناً لأحد رجال الأدب المعروفين ، وامتاز بذكاء أكثر من سنه وقد قضى فترة عاصفة عنيفة فى المدرسة خرج بعدها حيث واصل دراسته الخاصة وأضنى نفسه فى ذلك ، فلما أدرك العشرين من عمره تطلع حوله عسى أن يجد الوسيلة التى تهيء له تحقيق أطماعه . لم يكن تنقصه القوة العقلية ولكن أعوزه نفوذ أحد النبلاء ، وقد وفق إلى ضالته فى شخص المركيز كاراباس وهو رجل ضعيف مغرور وإن كان طموحا فى الوقت ذاته ، استطاع صاحبنا الشاب أن يسحر النبيل بذكائه ولباقته ثم توجه لزيارته فى قصره الريفى حيث وجد جماعة من أصدقائه . وهناك اتفق على تأليف حزب ووقع الاختيار على ڤيڤيان جراى كى يتوجه إلى ويلز حيث يطلب إلى السياسى الناشىء كليڤلاند أن يصحبه . وقد نجح فى أداء رسالته وعاد مصحوبا بالرجل . غير أن المرأة تدخلت فى الأمر وأفسدته ، ولعبت الخيانة والوشاية والأغراض دورها ، واشتبك ڤيڤيان فى مبارزة مع كليڤلاند أفقدت الأخير حياته وذهب البطل على أثرها إلى ألمانيا يبكى أطماعه المحطمة ويعيش فريسة للندم المرير ... هذه خلاصة موجزة للقصة وتستطيع أن تلمس فيها بعض نواحى حياة دزرائيلى إلى حين اختلف مع موراى بعد إخفاق مشروع الصحيفة اليومية .

وكانت أسرة أوستن مجاورة لآل دزرائيلى. والسيدة أوستن ذات جمال بارع وذات مواهب عقلية تسمو على المستوى العادى، وتجيش فى صدرها رغبة جامحة فى أن تصبح من النجوم التى تلمع فى سماء مجتمع لندن. وكانت فى الوقت ذاته متعطشة إلى الملق والاعجاب، ينفتح قلبها للثناء. وقد أبدت اهتماماً خاصا بذلك الشاب الذى كانت تراه أثناء زياراتها لأهله غارقا بين أكداس الكتب والمؤلفات ثم يدخل عليها بعد ذلك بمحياه الجميل وهو غاية فى الرشاقة والتأنق. وكان هو نفسه يأنس إلى صحبتها ويجد اللذة فى الجلوس إليها والتحدث معها. فلما أتم قصته أفضى إليها بالأمر ورجاها أن تطالعها فقبلت فرحة راضية وقضت فى قراءتها ليلة كاملة. فلما أصبح اليوم التالى كتبت مهنئة مشجعة وأصرت على ضرورة نشرها واتفقت على أن يتم ذلك دون ذكر اسم المؤلف وأخفى المتآمرون الأمر عن أى إنسان، حتى عن الناشر كولبرن الذى أخذ على عاتقه إبراز القصة إلى الجمهور.

وحتى لا يتسرب خبر الموضوع نسخت مسز أوستن الرواية بخط يدها. أما كولبرن فقد كان من نوابغ الناشرين ومن أعظم الدعاة وقام بدعاية واسعة النطاق عن القصة التى ستهز مجتمع لندن والتى تعرض صوراً من الشخصيات الكبيرة لا عداد لها. أثار ذلك الفضول والاهتمام، وأخذ القوم يراهنون على أسماء معينة تناولها الكاتب المجهول. ولا نشك ان دزرائيلى كان

طربا لهذا وهو الذى كان يميل إلى قراءة القصص والأساطير الخفية وأخبار المؤامرات الغامضة . وأخيراً صدرت القصة وصارت حديث النوادى والصالونات . وفى وسط هذه الموجة العالية حلت الكارثة إذ عرف الناس شخصية المؤلف واسمه بسبب زلة لسان ممن له اتصال بالعمل . غضبت لندن ، وهكذا شأن الناس جميعاً تخدعهم المظاهر وتغرهم الأسماء ويبهرهم المظهر ولا يعنيهم الجوهر . وحملت الصحف على دزرائيلى ، واتهمه الكتاب بالدجل والخداع واستغلال بساطة الناس وحسن طويتهم . كانت هذه التهم الباطلة أقسى على نفسه من إخفاق مشروع الصحيفة أو خسارته المالية . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن موراى غضب غضبا شديداً وسخط على أسرة دزرائيلى كلها إذ اعتقد أن الشاب يعنيه ويظهره على صورة المركيز كاراباس .

تأثرت صحة دزرائيلى ، وهنا وصلته دعوة من آل أوستن كى يصحبهم فى رحلة إلى سويسرا وشمال إيطاليا فقبلها شاكراً إذ تتيح له فرصة الاستجمام بعد مجهود مضن ، والابتعاد عن جو مؤلم . واصل دزرائيلى إرسال الخطابات إلى والده وأخته وفيها تبرز لنا ناحية منه تلك هى قوة الملاحظة لكل ما حوله من صور وأشكال ودقة الوصف والتصوير . فهو يصف لنا الطريق الذى يمر به بطريقة واقعية تجعل كل شىء يتراءى مجسما واضحا أمام أعيننا . وأخيراً عادت الجماعة إلى الوطن بعد أن كلفته الرحلة مائة وخمسين جنيها .

الفصل الثالث

الاستقلال عن الأحزاب

رجع دزرائيلى من رحلته بالشرق وقد استعاد صحته ونشاطه وامتلأت نفسه شجاعة وأملا . وأثرت إقامته فى الشرق فى نظرته إلى المستقبل ، وأخذ يفكر فى الاشتغال بالسياسة ، وكان خلال رحلته يتابع باهتمام ظاهر الاضطراب السائد فى انجلترا بصدد حركة الإصلاح النيابى .

استطاعت انجلترا فى عصر التيودور أن تحطم مخلفات العصور الوسطى من امتيازات الأشراف والكنيسة ، وأن تؤكد سيادة التاج فى البرلمان ، وفى عهد أسرة استيوارت زاد نفوذ البرلمان واقتسم هذه السيادة مع التاج ، وفى الوقت ذاته سلم مبدأ الحكومة المحلية من الإعتداء . أما فى القرن الثامن عشر فقد أصبح البرلمان فى الحقيقة المسيطر على الأداة التنفيذية وذلك عن طريق النظام الوزارى . هذا التطور الدستورى الذى ميز انجلترا عن دول القارة الأوربية لم يحقق الديموقراطية السياسة ، إذ ظل النفوذ الفعلى فى السلطتين التشريعية والتنفيذية إحتكاراً لأقلية من الأشراف وملاك الأراضى . وجهد هؤلاء فى الإبقاء على احتكارهم هذا برغم تغير الأحوال وتبدل الظروف . ذلك

أن النصف الثانى من القرن الثامن عشر شاهد تلك التغييرات التى اصطلح الناس على تسميتها بالثورة الصناعية ، والتى تحولت بمقتضاها إنجلترا من دولة زراعية إلى دولة صناعية ، وعظم إنتاجها الصناعى وزادت ثروتها حتى تمكنت من الصمود فى حروبها مع فرنسا منذ عام ١٧٩٣ إلى حين القضاء على نابليون . وقد خلقت هذه الثورة طبقة جديدة من رجال الصناعة ، كما أدت إلى قيام المدن الصناعية وتركز العمال فيها . وهـــذا الثراء الذى ترتب على هذا التحول الجديد لم يصحبه نظام عادل لتوزيع هذه الأموال التى تتراكم يوماً بعد يوم ، وزادت حالة الطبقة العاملة سوءاً وهبطت أجورها ، وخاصة بعد انتهاء الصراع الأوربى ، وانتشرت البطالة إلى حد كبير ، بل وكان كل اختراع جديد يزيد من شدتها . وهنا أخذ كثيرون من أهل الفكر يطالبون بالتشريعات اللازمة لضمان العدالة الإجتماعية ، كما قويت الدعوة إلى إصلاح نظام الإنتخاب الذى لم يتغير منذ القرن الرابع عشر . غير أن جماعة التورى التى كسبت الحرب لانجلترا عجزت عن إدراك التحول الذى طرأ على البلاد واعتبرت كل محاولة للإصلاح النيابى عملا غير مشروع ، وفتنة تهدد البلاد بالخطر ، ونذيرا بأن تشاهد انجلترا صورة أخرى من الثورة الفرنسية . وهذا القصور من جانب التورى كان فى صالح الحزب الآخر أى جماعة الهويج وأخذت سمعتهم تعلو فى البلاد برغم أنهم أقلية فى البرلمان . أما

الطبقة الوسطى من رجال الصناعة والتجارة فساءهم أن القوة الإقتصادية التى يملكونها ليست لها أهمية كبرى بسبب نقص النظام الإنتخابى ، فشاركوا الطبقة العاملة فى المطالبة بالإصلاح وانضموا إلى حزب الهويج المطالب به وزادوه قوة . أما الحزب فجعل اعتماده على رجال هذه الطبقة . وبذا ظل عهدا طويلا يقترن اسمه بها مما سيعطى خصومه الفرصة على يد دزرائيلى فى المستقبل .

اشتد الاضطراب فى البلاد فى خريف عام ١٨٣٠ وأصبح المجتمع على وشك الانحلال[١] بسبب البؤس الإقتصادى والفقر والفقر والجوع وظلم الطبقات الغنية . وحدث أن سقطت وزارة ولنجتون فى نوفمبر سنة ١٨٣٠ وتألفت وزارة لورد جراى ، وتضم الهويج مع ذلك الفريق من التورى الذى انحاز إلى قضية الإصلاح . وبعد صراع عنيف فى داخل البرلمان وخارجه ، وبعد نضال من جانب مجلس اللوردات بصفة خاصة صدر قانون الإصلاح فى عام ١٨٣٢ فكان فاتحة لعهد جديد .

قرر دزرائيلى أن يتقدم للإنتخابات عن دائرة High Wycombe بصفته مستقلا عن الأحزاب لأنه لم يستقر بعد على الحزب الذى ينتمى إليه . غير أن الدائرة خلت من ممثلها قبل

---

(١) G. M. Trevelyan : History of the Nineteenth Century and After, p. 230.

إجراء الإنتخابات العامة ، وهكذا تقدم فى ظل القانون القديم منافسا للكولونيل جراى ابن رئيس الوزراء ، لأن الدائرة ملك لحزب الهويج . أعلن المرشح أنه من الراديكاليين لأن « مبادىء التورى قد بليت ، ولا أستطيع أن أنزل إلى مستوى الهويج » . وهناك ألقى خطاباً رائعا ظل حديث القوم عهدا طويلا . وكان أنصار التورى يؤيدونه لأنه مستقل ، وإذن فهو خير من نائب يمثل خصومهم السياسيين ، ولأن أباه معروف بميوله إلى حزبهم . وفى خطابه هذا أعلن أنه يتقدم إليهم مستقلا عن جميع الأحزاب وأنه لا يعتبر قانون الإصلاح غاية فى ذاته وإنما يعده وسيلة لتحقيق إصلاحات مالية وكنسية وقضائية كبيرة ، ولأول مرة فى ذلك العصر سمع الناخبون مرشحاً يقول : إن برنامجه ينحصر فى العمل على تحسين حالة الفقراء لأنه نشأ من أسرة متواضعة لاتمت إلى الأرستقراطية بصلة ولكن الخطب والبرامج لم تكن لتكسب الدوائر . ولما ظهرت نتيجة الإنتخاب أحرز إثنى عشر صوتاً ، بينما نال خصمه عشرين صوتا وصار من النواب . هكذا غلب على أمره ولكنه انتقم لنفسه بخطاب قال فيه : « لقد أبعدنى الهويج وسيندمون على ذلك » .

أصبحت الإنتخابات العامة على الأبواب وحل مجلس العموم فى ٣ ديسمبر ، ولكن دزرائيلى كان مصمماً أن يبدأ المعركة قبل ذلك ، ولذا أصدر فى أول أكتوبر منشورا بسط فيه برنامجه

وأهدافه ، فهو رجل لا يحمل شارة الحزبية ، وهو مستعد لتأييد أى نظام للتصويت يقضى على المفاسد القائمة ، وهو يطالب بالعناية بتعليم الشعب ، ثم يصرح أنه على استعداد لتأييد سياسة الاقتصاد فى النفقات وخفض الضرائب إلى أدنى حد يتفق والصالح العام ، ولكنه فى الوقت نفسه لن يناصر وزارة لاتبتكر المشروعات التى تؤدى إلى تحسين حالة الطبقات الدنيا ، وإثارة نشاط البلاد ، وتحرير الصناعة من القيود التى تكبلها ، واستعادة سمعة البلاد الآخذة فى الانحطاط ، أما عن قوانين الغلال فإنه « من أنصار أى تغيير يخفف عن المستهلك دون إلحاق الأذى بالزارع » ، ثم نراه يحمل حملة شعواء على حزب الهويج الذى سلب الحكم بوعود باطلة وعمل خلال حكمه على زعزعة أركان الإمبراطورية : أليست ارلنده فى ثورة ، والمستعمرات فى اضطراب ، وعلاقات البلاد الخارجية فى ارتباك شديد ، والفلاح فى حالة من الشك ، وصاحب السفن يملأ نفسه الريب ، والتجار يشكون ، والصناع لايجدون أسواقاً لمصنوعاتهم وإيراد الحكومة فى تناقص مستمر ؟ ثم يخاطب الشعب داعيا إياه أن ينبذ تلك الأسماء التى ألفها لأنها تمثل أحزابا تعمل على خداعه والتغرير به ثم يقول « اتحدوا فى سبيل تكوين حزب قومى عظيم يستطيع إنقاذ البلاد من الدمار الذى يوشك أن يحل بها » ، ولما اتهمه خصومه أنه محافظ متستر رد عليهم فى خطاب آخر يقول : إنه

محافظ فعلا بالمعنى الحقيق ألا وهو الإبقاء على خير ما فى دستور البلاد ونظمها ، كما أنه راديكالى يسعى إلى القضاء على ما فى هذا الدستور من عيوب وشوائب . ولكن الهويج وحدوا جهودهم ضده ، ولما ظهرت النتيجة نجح منافساه وأخفق هو للمرة الثانية[1] . وعلى أثر ذلك أصدر مؤلفا صغيراً عنوانه (What is He) وفيه يجد فكرة تكوين حزب قومى ويشرح المبادئ التى يمكن على أساسها قيام ذلك الحزب ، ومما جاء فى الكتاب قوله « إن الغرض الأول للسياسى هو حكومة قوية إذ بدون ذلك ينعدم الاستقرار .. فما الوسائل التى تمهد لنا قيام هذه الحكومة القوية ؟ يتعين علينا الكشف عن المبادئ التى يمكن إقامة هذه الحكومة عليها . ويجب علينا إما أن نعود إلى المبدأ الأرستقراطى وإما أن نسير قدما نحو المبـــدأ الديموقراطى . وأرى أن مبدأ الحكومة الأرستقراطية قد قضى عليه بالفناء منذ اللحظة التى أقر فيها مجلس اللوردات قانون الإصلاح بدافع الخوف لا نتيجة الإيمان به ، ومنذ تلك اللحظة تعين على أرباب الأملاك وذوى المواهب وأهل العلم أن يوجهوا جهودهم نحو تنمية المبدأ الديموقراطى » .

لقد نال الهويج أغلبية كبيرة فى الإنتخابات وألفوا حكومة منهم ، وامتازت السنوات الثلاث التالية لصدور قانون الإصلاح بتشريعات كثيرة لصالح المجتمع ، وذلك فى ظل المبادىء التى

---

(١) كانت النتيجة كما يلى : سميث ١٧٩ ، جراى ١٤٠ ، دزرائيلى ١١٩ .

نادى بها الفيلسوف بنتام الذى عاش فيما بين ١٧٤٨ ، ١٨٣٢ . وقد كان للرجل أكبر الأثر فى التفكير الإنجليزى . فهو يرى أن أعظم قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس هو أساس المثل الأخلاقية والتشريع ، وهذا ما عرف باسم « مذهب المنفعة » (Doctrine of Utility) ، ولكن الوزارة عجزت عن معالجة المسألة المالية وهذا أعطى سلاحاً لخصومها بزعامة سير روبرت بيل الذى وقف لها بالمرصاد يتتبع أعمالها ويقيد أخطاءها . وكان بيل قد استطاع أن يجمع الأنصار ويؤلف ما بينهم واتخذ اسم « المحافظين » بدلا من « التورى » لأن التسمية الأخيرة ارتبطت فى أذهان الناس بمعارضة هذا الحزب لحركة الإصلاح . غير أن الشقاق دب فى صفوف الوزارة ثم قدم لورد جراى استقالته فى عام ١٨٣٤ وخلفه أحد رجال حزبه وهو لورد ملبورن (بعد أن عجز بيل عن تأليف وزارة إذ لم يستطع حين أجرى الإنتخابات أن يحرز أغلبية يستند إليها) .

وفى فترة الاضطراب التى صحبت استدعاء بيل لتأليف الوزارة دخل دزرائيلى المعركة الإنتخابية فى نفس الدائرة للمرة الثالثة أمام منافسيه السابقين كذلك ، وألقى خطاباً أعلن فيه أن برنامجه ينحصر فى مديد المساعدة لأصحاب المصالح الزراعية ، تحسين أحوال الكنيسة ، معالجة المشكلة الأرلندية فى أسرع وقت ، منح التسامح الدينى للمخالفين إلى الحد الذى يتفق مع

دستور البلاد القائم ، إصلاح الهيئات البلدية حتى تستطيع أداء واجبها على الوجه الأكمل . وقد ختم خطابه بالعبارة التالية : « والحق — أيها السادة — إن السياسى وليد عصره وثمرة الظروف والأيام التى يعيش فيها . إن السياسى هو شخصية ذات طابع عملى فإذا ما دعى إلى تولى مقاليد الأمور فليس عليه أن يبحث عن رأيه بصدد هذا الأمر أو ذاك ، وإنما عليه أن يتأكد أن مايجب عمله هو ما تمس الحاجة إليه وما يعود بالنفع والمصلحة » . ولا ريب أن هذه عبارات جريئة جديرة أن يتدبر المرء مغزاها . وللمرة الثالثة أخفق المرشح المستقل إذ ظهرت نتيجة الإنتخابات على الوجه الآتى :

سميث ٢٨٩ جراى ١٤٧ دزرائيلى ١٢٨

وقد علق على هذه النتيجة فى خطاب ألقاه فى اجتماع أعده المحافظون فقال : إنى لا أشعر بأى حال من الأحوال أنى رجل غلب على أمره ، ولعل هذا لأنى تعودت مثل هذا الأمر . وإنى لأكرر لنفسى ما قاله ذلك القائد الإيطالى حين سئل بعد أن تقدمت به السن عن السر فى انتصاراته الدائمة ، بأنه كان يغلب دائما فى أيام شبابه » .

هكذا تقدم دزرائيلى إلى المعركة الإنتخابية ثلاث مرات فى سنوات قلائل فلم يوفق إلى النجاح ودخول مجلس العموم ، وما ذلك إلا لأنه أراد الخروج على تقاليد البلاد بالتقدم مستقلا

عن الأحزاب . لقد كان يقول للناس : إنه لا يلبس شارة الحزبية فيعجبون ببلاغته وأسلوبه ، ويتأثرون بإلقائه ويرحبون ببرنامجه وأهدافه ، ولكن عندما تظهر النتيجة يغلبه منافسوه الذين تؤيدهم أحزابهم . وهنا أدرك — ولعل ذلك بعد فشله فى المرة الثانية — أن من الواجب عليه أن ينطوى تحت لواء أحد الحزبين الكبيرين . ولعل تردد الرجل كان راجعا إلى أنه لا يؤمن فى قرارة نفسه أنهما يسعيان إلى هدف عظيم أو غاية سامية ، أو لعله كان ينفر من العمل تحت زعامة غيره حتى ولو كان سير روبرت بيل نفسه . ولكن الظروف كانت أقوى من إرادته وأشد أثراً من قوته . وإذ تعين عليه اختيار أحد المعسكرين إنحاز إلى جانب المحافظين لأنه يأمل أن يهذبهم ويعلمهم أداء رسالتهم بالمعنى الذى يفهمه . وستحقق الأيام أمله ولكن بعد انقضاء الوقت الكافى .

الفصل الرابع

عضو البرلمان

رأينا كيف حاول دزرائيلى أن يشق طريقه إلى الحياة السياسية بعيداً عن الأحزاب القائمة، ورأينا كيف كان مصير هذه المحاولة . ولابد أنه اعتقد ضرورة السير فى اتجاه جديد، ولكنه رأى من الواجب أن يوضح هذا التحول وسببه، وأن يقنع الناس بصواب ما يعتزم الإقدام عليه، وأن تطمئن نفسه إلى خطته الجديدة، وهنا نشر فى عام ١٨٣٥ مؤلفاً صغيرا عنوانه Vindication of the English Constitution in a Letter to a Noble and Learned Lord . وقد استهل بحثه بهجوم عنيف قوى العبارة على خصومه من أنصار مذهب المنفعة، وعلى ماجروا عليه من الإنغماس فى الآراء النظرية يحاولون استخدامها فى وضع نظم سياسية ودساتير جديدة لا تستند إلى الواقع العملى ولا تتمشى مع التطور التاريخى . ذلك أن للشعوب شخصياتها وطبائعها الخاصة بها، شأنها فى ذلك شأن الأفراد . كما أن « هذا الاحترام للسوابق، وهذا التمسك بأهداب التقاليد، وهذا الإجلال للقديم، مما يهزأ به كثيرا نفر من أصحاب

العقول المصابة بالغرور ، وذوى التفكير السطحى ، ... إنما يبدو فى نظر المؤلف قائما على إدراك عميق للطبيعة البشرية ، ومعنى هذا أن العلم النظرى وحده ليس كافياً لصياغة نظم الحكم التى يُكفل لها البقاء والاستقرار وتستطيع مواجهة مطالب الشعوب .

ينتقل دزرائيلى بعد ذلك إلى مسألة تمثيل الطبقات المنفصل، ويبين لنا أن التوازن الذى يتميز به الدستور إنما يرتكز على أساس المحافظة على مختلف حقوق هذه الطبقات . ولاشك أنه بهذا يهاجم جماعة الراديكاليين الفلاسفة الذين حملوا على مجلس اللوردات وطالبوا بإلغائه . وتقوم حجة المؤلف على أن مجلس العموم لا يمثل الشعب فى الواقع أكثر مما يمثله مجلس اللوردات ، وذلك لأن مجلس العموم لا يعبر إلا عن أصوات الذين لهم حق الإنتخاب وهؤلاء — حسب قانون الإصلاح النيابى — لم يزد عددهم عن ثلاثمائة أو أربعمائة ألف . أما مجلس اللوردات ، فبرغم أنه لا يستند إلى مبدأ الإنتخاب ، فانه أبرز مثل على التمثيل بدون الإنتخاب ، لأنه فى الحقيقة يمثل الكنيسة والقانون والمقاطعات والمدن وزعماء الشعب الوراثيين وبخاصة ملاك الأراضى وهم العنصر الحقيقى الدائم من الشعب الإنجليزى . ومجلس اللوردات هذا أحد دعائم السلطة التشريعية ، وقد أظهر قدراً كبيرا من القوة والنشاط مدى خمسة قرون بحيث لا يوجد سياسى يستطيع أن ينكر أن هذا المجلس قد ساهم بنصيب وافر فى استقرار الأنظمة

الإنجليزية . وفضلا عن هذا فقد احتفظت طبقة الأشراف فى انجلترا بولاء مختلف طبقات الشعب لها ، وذلك لأنها ذات طابع ديموقراطى إذ لم تهبط إلى مستوى فئة منحلة فاسدة يشعر الشعب إزاءها بالحقد والكراهية . إن المساواة المدنية هى أساس البناء الإجتماعى ، وهذا هو المبدأ العظيم الذى وضع النبلاء على رأس الشعب وأعطاهم محل القيادة ، وملأ صفوف مجلس العموم بأعضاء يمتون إلى الأشراف بأوثق صلات الرحم والدم .

وعلى هذا لا نجد هذه الطبقات ، مهما كانت امتيازاتها ، تعيش بمنأى عن بقية الشعب أو تعد نفسها أسمى منه ، الأمر الذى جعل من أشراف انجلترا ونوابها أمناء على الشعب الإنجليزى ، ولم يجعل منهم سادة له يسيطرون على مصائره . وإذ انتهى المؤلف من هذا التعليل انتقد قانون الإصلاح النيابى الصادر فى سنة ١٨٣٢ وطالب بتوسيع قواعده وأسسه حتى يصبح مجلس العموم أقرب إلى تمثيل الشعب تمثيلا حقيقيا .

انتقل دزرائيلى بعد ذلك إلى تتبع تاريخ الأحزاب البريطانية فقال : إن هدف حزب الهويج كان على الدوام قلب توازن الدستور ومهاجمة النظم القومية فى سبيل المصلحة الذاتية . وترجع نشأة هذا الحزب إلى أواخر القرن السابع عشر حين تحالف فريق من الأعيان ممن يكنون الكراهية للملكية مع جماعة البيورتان الساخطين على نظام الكنيسة الرسمى الذى رضيت

به الدولة . فكأن الاتجاه الجمهورى هو الذى وفق بين الجماعتين . وحاولت كل منهما اتخاذ ذلك ذريعة لبسط سيادتها وتأييد سلطانها على البلاد ، فكأن هذا الحزب أقليـــة ترى هدفها فى حكومة الأوليجاركية وترى فى نظام جمهورية البندقية البائد مثلا لها يحتذى . وعلى النقيض من ذلك يؤكد الكاتب أن حزب التورى هو الحزب القومى الحقيق الوحيد فى البلاد كلها ، وماذلك إلا بسبب طابعه الديموقراطى ، إذ يقف إلى جانب النظم التى قامت لتحقيق الصالح العام وضمان المساواة فى الحقوق المدنية ، وهى التى بدونها لا يتسنى مطلقاً إيجاد حكومة حرة مهما كان اسمها . فإذا ما أتم المؤلف هذا العرض التاريخى الذى يوضح الخلاف الأساسى بين الحزبين ، صرح أن البلاد فى أشد الحاجة إلى زعيم جديد يتولى رياسة حزب التورى (أو المحافظين) ، ويكون له ذلك القدر الكافى من الشجاعة الذى يجعله يتولى الدفاع عن التقاليد والنظم الماضية إذا كانت مما يقدر لها البقاء ، وإزالة غيرها مما لا يتفق وروح العصر وسنة التطور . وعلى هذا الزعيم أن يتولى تعليم الحزب والسير به فى اتجاه جديد يرمى إلى حماية مصالح الشعب لأن قانون الإصلاح قد ركز السلطة كلها فى أيدى نفر ضئيل هو فى الحقيقة عدو للشعب ، وينبغى أن يكون قوام سياسة المحافظين الجديدة العطف على أغلبية الشعب واجتذاب الطبقة العامة ، بعد توضيع مبادىء الحزب ، وإثبات

أنها وحدها هى التى تتفق وصالح الأمة كلها .

تلك هى المبادىء التى أبرزها دزرائيلى فى مؤلفه ، وتلك هى الحجج التى أدلى بها . ولقد كان حظ الكتاب من النجاح والرواج والشهرة عظيما حتى أن دوق ولنجتون نفسه ، وهو صاحب المكانة العليا فى نفس الشعب الإنجليزى ، قال : إن عليهم أن يجدوا لهذا الشاب مقعداً فى البرلمان . أما سير روبرت بيل فقد كتب إلى المؤلف بروح من التشجيع والمحبة والعطف .

ذكرنا أن ميول دزرائيلى كانت فى حقيقتها تتجه إلى ناحية المحافظين . وكان له فى صفوفهم أصدقاء كالدوق بكنجهام وابنه لورد شاندوس ، ثم تقابل مع لورد لندهرست الذى أعجب به وبذكائه ومنحه صداقته وأسدى له النصائح أكثر من مرة ، بل إنه جمع بينه يوماً فى حفل عشاء مع غلادستون ، وبفضل لندهرست استطاع دزرائيلى أن ينفذ إلى العالم السياسى ويتصل بأسراره ويتعرف إلى الشخصيات البارزة فيه . ونعلم أن دزرائيلى كان قد اتصل بالمجتمع المهذب فى لندن وكسب لنفسه أصدقاء وصديقات من أرباب المراكز والنفوذ ، وممن عرفهم الكاتب Pulwer وزاره مراراً حيث تعرف فى بيته إلى مسز ويندهام وقابلها عدة مرات . ولما مات الملك وليم الرابع واعتلت العرش الملكة ڤكتوريا الشابة أصبح من المتعين إجراء انتخابات جديدة وهنا توالت عروض على دزرائيلى بدوائر مختلفة كى يرشح نفسه

فى إحداها ، ومن أصحاب هذه العروض ويندهام لويس الذى أشار عليه أن يتقدم معه إلى دائرة ماديستون حيث حظ المحافظين فى النجاح كبير . ولا شك إن لزوجته دخلا فى هذا الاقتراح ، وكان دزرائيلى قد قابلها أكثر من مرة أبدت خلالها اهتماماً به ولمست مواهبه واستعداده حتى أنها كتبت تقول عنه « إنى أتنبأ أن مستر دزرائيلى سيصير فى سنوات قلائل من أعظم رجال عصره » ولقد كانت نبوءة صادقة حققتها الأيام .

تقدم دزرائيلى إلى الدائرة وألقى خطاباً رائعاً جاء فيه مخاطباً الناخبين « إنى أتقدم إليكم طالباً أصواتكم بصفتى نصير ذلك الدستور القديم الذى كان فخر آبائكم ، وسيظل نعمة لأبنائكم . أريد أن أرى التاج متمتعا بامتيازاته ، وأن أرى كلا المجلسين يتمتعان بحقوقهما المتساوية » . ثم أجريت الإنتخابات وظهرت النتيجة فى ٢٧ يوليو سنة ١٨٣٧ ، ففاز الشاب الجرىء وأدرك أخيراً الهدف الذى كافح من أجله سنوات طوالا .

أقام بعد ذلك ثلاثة أشهر فى برادنام مع أسرته بقصد الاستجمام بعد العناء ، وزارته مسز ويندهام فكتب إليها فى أول سبتمبر سنة ١٨٣٧ يقول : « بعد أن ذهبت كان كل فرد وكل شىء يبدو مملا وكئيبا ، لأن الزيارة كانت قصيرة فى الحقيقة » وفى الخامس من نوفمبر اجتمع برلمان الملكة فكتوريا الأول ، وبدأ دزرائيلى حياته فى مجلس العموم حيث يظل من أعضائه

ما يقرب من أربعين سنة بلا انقطاع . وهكذا اتخذ مكانه فى القاعة التى أعجبت بوليم بت وبرك وكاننج من قبل ، وجلس زميلا لروبرت بيل وأوكونل ورسل وبالمرستون ، وفى السابع من ديسمبر وقف يلقى خطابه الأول بعد أن جلس أوكونل المرعب . بدأ النائب الجديد يتحدث إلى زملائه فأنصتوا هينهة ، فلما بدأ يعرض إلى الزعيم الإرلندى حدثت حركة فى المجلس ، ولما هاجم قانون الإصلاح النيابى وأشار إلى أنه أفسد الأمور عن ذى قبل حيث أتاح الفرصة لأساليب الوعيد والإرهاب ، بدت فى بعض أركان المجلس روح عدائية وبدأت المقاطعة ، واستمرت بحيث عجز عن حمل الأعضاء على الإنصات إليه ، وأحدث النواب الأرلنديون والراديكاليون حركات وأصواتاً تبعث على الضحك ، فأخـــذوا يضربون الأرض بأقدامهم ، ويصرخون فى وجهه ، ويعلقون على أقواله بعبارات ملؤها الهزء والسخرية ، ويقلدون أصوات بعض أنواع الحيوان . ومع ذلك حافظ على هدوئه ورباطة جأشه ، وقبل أن يجلس ختم خطابه بهذه العبارة : « إنى أجلس الآن وسيأتى اليوم الذى تستمعون فيه إلىَّ » . وكأنما تنبأ الرجل . ولقد كتب إلى أخته ساره عن هذا الإخفاق الذى لازمه فى محاولته الأولى حيث عجز عن حمل المجلس على إعطائه الفرصة ليدلى بكل ما لديه . ولـكن هذا لم يكن ناشئاً عن عجز أو وهن من جانبه ، وإنما

سببه قوة الخصوم الجثمانية ، ووصف موقفهم منه بأنه ينم عن القسوة والبعد عن روح الحق والعدالة .

وقد حاول خصومه استغلال هذه الفرصة للنيل منه فى الصحف ، ولكن التيمس لم تشأ أن تجرح شعوره ، فوصفت خطابه بالبلاغة . أما سير روبرت بيل فقد شجعه كثيرا ، كما كتب إليه لندهرست مبدياً الأسف لموقف الراديكاليين ومعربا عن الثقة بنجاحه فى المستقبل برغم أساليبهم وحملاتهم .

والواقع لم يكن من المنتظر أن يوفق دزرائيلى إلى الحد الذى كان يتوقعه منذ أول مرة لأن المجلس لم يألف مظهره غير الإنجليزى ، وملابسه الدالة على عناية التأنق ، وأسلوبه المنمق ، وما اتخذه من موقف التكلف . لقد تلقى درساً قويا فى كيف يخاطب مجلس العموم البريطانى حتى يستطيع أن يحمل الأعضاء على الإنصات إليه .

رأينا ذلك الاهتمام الذى أظهرته مسز ويندهام بدزرائيلى ، وكيف جاهدت فى سبيل نجاحه فى الإنتخابات حتى كانت اللوحات الإنتخابيـــة تضم اسمها إلى جانب اسم المرشح ، وحتى قيل فى الأوساط إنه موضع حمايتها البرلمانية . ولا شك أن هذا الحادث زاد من توثيق الرابطة بين هذين الشخصين وكانت له نتائج هامة بالنسبة إلى حياة دزرائيلى . واسم السيدة الحقيقى مارى آن إيڤانس ، وولدت فى عام ١٧٩٢ فهى تكبر صديقها باثنى عشرة سنة . وكان

أبوها جون إيفانس ضابطا فى البحرية البريطانية ، وحدث أن مات زوجها وصارت أرملة وهنا ابتدأت الصلة بينها وبين دزرائيلى تتخذ وصفاً آخر ، وبدأ الأخير يفكر جديا فى الزواج منها ولكنها لم تكن لتعطيه رأيا قاطعا ، فهى ليست صغيرة السن إلى الحد الذى يستهويها أول عرض بل لا بد لها من وقت تفكر فيه وتدرس الأمر على وجوهه المختلفة ، كما أنها لا تريد أن تتسرع إذ ترى ضرورة احترام التقاليد فتسمح بانقضاء وقت كاف على موت زوجها الأول . ومن الجائز أنها كغيرها من بنات جنسها لجأت إلى سلاح الصد وعدم الاستجابة السريعة للرجاء لما لذلك من أثر قوى . غير أن دزرائيلى كان يزداد ميلا إليها ويزداد سروراً بلقائها والجلوس إلى جانبها فهو يكتب إليها فى ٢٠ أغسطس سنة ١٨٣٨ يقول « الشمس ساطعة وتبدو برادنام فى حلة من الجمال والخضرة والنضرة . . ولكنك لست هنا فأتوسل إليك بالحضور سريعا » وفى التاسع من اكتوبر يخبرها أن رأيه قد استقر على مغادرة ذلك المكان فى الغد حتى يحظى بلذة قضاء يوم أو اثنين فى صحبتها الحلوة لأنه لم يغادر البيت منذ أن بعدت عنه . وزاد به الشوق إليها فكتب يقول إنه كتب اسمها بحروف كبيرة وجعله أمام ناظريه . غير أن بعدها عنه جعله يفكر بألم فى التعاسة التى تحيط به ولذا فهو لا يستطيع « أن يوفق بين الحب والبعد » وذلك لأن آراءه عن الحب هى التمتع الدائم بالاجتماع بذلك

المخلوق الحلو الذى وهبه نفسه . وهكذا جعل الحب من دزرائيلى شخصاً يتكلم بلغة الشعراء . وهو يعتقد أن عليه أن يطلعها على كل شىء ، ولذا فهو يحدثها عن العاصفة التى هبت على برادنام . غير أن ألسنة السوء لم تشأ أن تظل عاطلة عن أداء مهمتها فى التفرقة وإلقاء ظلال الشك ، فأخذت تسخر بذلك الذى يسعى إلى امرأة تكبره ببضع سنوات ، وتعزو ذلك الغرام المفاجىء إلى سوء حالة العاشق المالية وأمله فى التخلص منها بثروة السيدة التى تملك بيتاً جميلا فى أحد أحياء لندن الراقية ، وتتمتع بدخل سنوى لا يقل عن أربعة آلاف من الجنيهات . ويبدو أن مارى آن صدقت الدعوى أو ارتابت فى نوايا حبيبها الحقيقية فلم تبد له العطف الذى اعتاده منها حتى اضطر أن يكتب اليها يوضح مركزه ، وينفى عن نفسه تهمة الجرى وراء مالها ، ويعتب على هذا الظن ، ويؤكد لها أن زواجهما لن يفيده فى المسائل الدنيوية المادية لأن المجتمع يجعل كل ما يشاء فى متناول يده . وختم خطابه بوداعها ، ولكنه لا يتظاهر بأن يتمنى لها السعادة لأنها ستقضى سنوات قلائل فى المرح ، وبعد ذلك تحل الساعة التى تتألم فيها وتذكره « بالندم والإعجاب واليأس ، وبذا تستعيد إلى ذاكرتها ذلك القلب الواله الذى طرحته جانبا وتلك العبقرية التى غدرت بها » ، فكان الرد أن استحلفته أن يعود إليها فهى تكاد تجن وهى لم تفكر مطلقا فى المسائل المالية . وهكذا سوى الخلاف الأول

والأخير بينهما ، وفى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٣٩ أصبحت مارى آن هى مسز دزرائيلى . وقد خلفت لنا الزوجة بياناً موجزا واضحا عن أوجه الخلاف بين شخصية وأخلاق كل منهما :

هادىء جدا	ثرثارة وثائرة جدا
طباعه تمتاز بالرزانة إن لم تكن بطابع الحزن	مرحة وتبدو عليها السعادة أثناء الحديث
لا يستثار أبدا	يثيرها أى شىء
قليل البشاشة	عظيمة البشاشة والمرح
عنيف الحب بارد فى الصداقة	باردة فى الحب عنيفة فى الصداقة
صبور جدا	عديمة الصبر
مجد جدا	فى غاية الكسل
كريم جدا	لا تظهر الكرم إلا لمن تحب
غالبا ما يقول ما يعتقد	لا تقول مطلقا إلا ما تعتقد
من المستحيل أن تعرف من يحب أو من يكره لأنه لا يبدى عواطفه	طبعها مختلف وتظهر عواطفها لمن تحب
لا يداخله الغرور	بها غرور كثير
مزهو بنفسه	لا تزهو بنفسها
لا يحب نفسه	على جانب كبير من حب الذات
قل من شىء يدخل التسلية إلى نفسه	يسليها ويسرها كل شىء
عبقرى	غبية
يمكن الاعتماد عليه إلى حد ما	لا يعتمد عليها أبدا
خصص حياته للسياسة والطموح	لا أطماع لها وتكره السياسة

وبرغم هذا التناقض عاش الزوجان مثلا للسعادة والهناء ، لأنها تؤمن به وتثق بمواهبه وتهيىء له فى بيته الهدوء الذى ينشده ولا تغضبه ولا تثيره وتكرس حياتها لأجله . وهكذا عاشت إلى جانبه ولازمته خلال حياته العصيبة عهداً طويلا .

الفصل الخامس

سقوط حكومة الهويج

ظهرت فى انجلترا خلال العقد الرابع من القرن التاسع عشر حركة ذات مظهر سياسى عرفت باسم « عهد الشعب » . وهى وليدة الفلسفة الراديكالية الإنجليزية التى كان دزرائيلى يعطف عليها عندما بدأ يشتغل بالسياسة ، وكانت تستمد معظم قوتها من الطبقة العاملة ، وكان الطابع الذى يميزها ديموقراطيا ، ولذا ساهمت بنصيب وافر فى المطالبة بالإصلاح السياسى الذى انتهى بصدور قانون سنة ١٨٣٢ . ولكن مظهرها أخذ فى التحول وتأثرت جماعة من أنصارها بفلسفة بنتام التى تعد إلى حد فلسفة الطبقة الوسطى ، ولذا لم يشعر دزرائيلى بالميل إليهم . غير أنه وجد فى مجلس العموم نفراً قليل العدد يمثل الروح القديمة التى لا تتعلق بأهداب الآراء النظرية الصرفة ، بل تقوم على أساس من العطف الصادق على الشعب وتعمل عن إخلاص لما فيه خيره ورفاهيته . فكان من الطبيعى أن تنشأ علاقات من التفاهم والانسجام بين هذا النفر من الراديكاليين ودزرائيلى .

خيب قانون الإصلاح النيابى ظنون العمال والآمال العريضة

التى علقوها عليه ، إذ وجدوا أنهم اشتركوا فى معركة خرجوا منها خاسرين ، لأن النتيجة كانت اشتراك الطبقة الوسطى فى الحكم مع الأرستقراطية الزراعية ، وبهذا صار هناك سيدان بدلا من سيد واحد ، والأخير أشد قسوة لأنه بنى مجده وجمع ثروته على حساب بؤس الغير وشقائهم . وإذا كانت الطبقة الدنيا من المجتمع الإنجليزى قد توقعت أن يسفر الإصلاح السياسى عن عالم جديد يحقق لها الخير والرفاهية فى الميادين الإقتصادية والاجتماعية ، أو يعمل على إزالة المساوىء التى تشكو منها ، فقد برهنت السنوات التالية خلاف ذلك لأن برلمان الهويج الجديد لم يعمل شيئاً جديراً بالذكر فى هذا الصدد ، ذلك لأن المصالح الذاتيـة أعمت رجال الصناعة الحديثة عن رؤية ما حولهم من آلام وشقاء ، ولأن حزب الهويج القائم بأمر البلاد كان متأثراً بالسياسة الإقتصادية التى تنفر من تدخـل الدولة فى العلاقات بين الأفراد وترى أن مسائل الأجور وما إليها إنما تحددها قوانين اقتصادية . ولهذا لم يتميز برلمان الإصلاح بأية إصلاحات اجتماعية أساسية سوى قانون المصانع الصادر فى سنة ١٨٣٣ بشأن تشغيل الأطفال ، وقانون الفقراء لعام ١٨٣٤ والذى تعرض لحملات عنيفة كان دزرائيلى يعطف عليها ويؤيدها .

غير أنه منذ سنة ١٨٣٧ بدأت فترة امتازت بانحطاط المحصول الزراعى وهبوط أصاب تجارة البلاد ، فعاد الأمر الأول بالبؤس

على فقراء الزراع ، كما سبب الآخر شقاء أعظم بالنسبة إلى طبقة العمال الصناعيين . وهنا بدأت الدعوة من جديد إلى الإصلاح النيابى لعل فيه خلاص البلاد من وطأة تلك الأزمة . والواقع أن المسألة لم تكن سياسية بقدر ما كانت اقتصادية واجتماعية . قدمت طلبات ست تضمنتها وثيقة أطلق عليها اسم « عهد الشعب » وهى : (١) منح الانتخاب العام للذكور . (٢) نظام التصويت السرى . (٣) البرلمانات السنوية . (٤) دفع مكافآت للأعضاء (٥) إلغاء مبدأ توافر نصاب فيمن يرشح نفسه لمجلس العموم . (٦) تقسيم البلاد إلى دوائر انتخابية متساوية . وقد عقد اجتماع كبير فى لندن يمثل أنصار هذه الحركة ، وسار جماعة إلى ساحة البرلمان يحملون العهد الموقع عليه من مليون شخص . غير أن المجلس رفض النظر فى هذا الإلتماس وعامله بروح الازدراء ، ورفض اقتراحا تقدم بشأن تأليف لجنة للنظر فى الموضوع . وكان دزرائيلى يعطف على الروح التى أملت هذا العهد وإن لم يوافق على الأسلوب والوسيلة ، ولذا أعد خطابا رائعا ألقاه فى المجلس نسب فيه الفساد كله إلى قانون إصلاح سنة ١٨٣٢ الذى ركز السلطة — فى رأيه — فى أيدى رجال الطبقة الوسطى ، وهى طبقة لا تشعر أن عليها أية واجبات اجتماعية إزاء بقية الشعب . ومعنى هذا أن هذه الطبقة منحت السلطان السياسى دون مسئولياته الاجتماعية . وحمل النائب على ما أبداه الهويج من

إزدراء للمطالب التى تضمنها العهد أو الروح التى أملت ذلك ، وعلل الأمر بأن هذه المطالب لا تتفق مع محاولة رجال ذلك الحزب الاحتفاظ بالنفوذ الذى استولوا عليه واحتكروه، ثم قال إن من الخطأ الظن أن البلاد ستحتمل هذا الإحتكار للقوة السياسية من جانب الطبقة الوسطى لأن هذا يخالف طباع الشعب الإنجليزى وتقاليده . وأخيراً نبه المجلس أو حذر الحكومة إلى أن الحركة القائمة ليست عملا سياسيا أو ذات طابع مؤقت ، ولكنها فى الحقيقة ثورة اجتماعية لها أهميتها ويجب معالجتها على ضوء هذه الحقيقة . ولا شك أن موقف دزرائيلى هذا إنما يتفق وأهدافه التى تنحصر فى العمل على تحسين أحوال الطبقات الفقيرة كما أوضح ذلك فى خطبه وبياناته أثناء المعارك الإنتخابية التى خاض غمارها . غير أن المجلس — كما قلنا — رفض الإلتماس ثم الاقتراح بأغلبية كبيرة من الهويج والمحافظين وكذلك فعل دزرائيلى لأنه لم يحاول بعد أن يخرج على الحزب الذى ينتمى اليه . ولكن الخطاب الذى ألقاه يلقى ضوءاً على نظرة الرجل إلى مبدأ الحكم الذى يجب أن يسود وإلى واجب الأحزاب القائمة بالحكم إزاء مختلف بقية طبقات الشعب . ولا شك أنه رأى بثاقب فكره أن حزبه كذلك عاجز عن إدراك معنى الروح الجديدة الآخذة فى الظهور . ولا ريب أنه لم يكن يؤمن أن فى استطاعة زعيمه سير روبرت بيل أن يقوم بمهمة تربية الحزب وتعديل عقليته وآراء

رجاله حتى يتشبع بالروح الديموقراطية الجديدة . وكانت حركة «عهد الشعب» هذه مصدر ارتباك لوزارة لورد ملبورن ولكن لم يعرف كيف يستغلها المحافظون ، كما أنها اقترنت ببعض أعمال الشغب والاضطراب ، وواجهتها الحكومة بالشدة ووسائل القمع ، وزجت ببعض زعمائها فى السجون وفرقت الإجتماعات التى نظمها أتباعها . ولهذا أخذت الحركة تضعف تدريجياً وبخاصة بعد سنة ١٨٤٣ إذ تحسنت الأحوال الإقتصادية نوعا وخف الضيق الآخذ بخناق العمال إلى حدما .

لقد كانت الغاية التى ترمى اليها الحركة كلها رفع مستوى الطبقات الدنيا من المجتمع ، أما وقد أخفقت الوسيلة تحول الرأى العام شطر ناحية أخرى للإفصاح عن آلامه واستيائه ، وأخذت الصيحة تعلو مطالبة بإلغاء قوانين الغلال وتألفت عصبة معادية لهذه القوانين عرفت باسم Anti-Corn League ومن زعمائها كوبدن وبريت .

على أثر انتهاء حروب نابليون صدر قانون الغلال سنة ١٨١٥ الذى حرم استيراد القمح الأجنبى مادام سعر القمح الإنجليزى دون الثمانين شلنا للربع . وهذا الإجراء قصد به حماية الزراعة الإنجليزية ، ولكن الواقع أن فائدته عادت على كبار الملاك الزراعيين إذ كانت الملكيات الكبيرة هى السائدة إذ ذاك وكانت من نتائج الثورة الزراعية التى شاهدتها تلك البلاد منذ

القرن الثامن عشر . وقد أحدثت هذه السياسة التعسفية ضيقا كبيراً بالنسبة إلى العمال لأنها رفعت ثمن الخبز فى الداخل وأصبح الكل ينظر اليها على أساس إنها إحدى الدعائم التى يرتكز عليها نفوذ الطبقة الأرستقراطية الزراعية . غير أن القانون المشار اليه أدى إلى زيادة إنتاج البلاد من القمح ولذا لم يصل ثمنه إلى الحد المقرر . ولكن فى سنة ١٨٣٧ ساء المحصول وقل الإنتاج فارتفعت الأسعار كثيراً . وهنا تألفت فى منشستر جمعية معادية لهذه القوانين (١٨٣٨) ، وما لبثت أن انتشرت انتشاراً واسعاً وزاد عدد أنصارها بفضل شخصية كوبدن والدعاية الواسعة التى قام بها فى طول البلاد وعرضها كلما زاد المحصول سوءاً وارتفعت الأسعار وعم الضيق تبعا لذلك سنة بعد أخرى . وكان من المنظور أن تعالج الوزارة الأمر وأن تتجه نحو إلغاء هذه القوانين والسير فى ناحية حرية التجارة ، ولكن لورد ملبورن كان من أشد أنصار سياسة الحماية الجمركية . ويلاحظ أن حركة كوبدن كانت أعمق مغزى من كونها انتصار لمبادىء اقتصادية معينة . لقد أصبحت قوانين الغلال رمز التفوق السياسى للأرستقراطية من ذوى الأملاك . وقد تزعزع هذا التفوق بصدور قانون الإصلاح النيابى فى سنة ١٨٣٢ ، غير أنه برغم هذا ظل النفوذ الفعلى لهذه الطبقة ، ولهذا وجدت الطبقة الوسطى أنها لم تحصل على النفوذ السياسى الذى يتفق مع القوة الإقتصادية الكبيرة التى فى أيديها ، ومن

هنا وجد رجالها نصيرا لهم فى شخص كوبدن فأيدوا حركته تأييداً كبيراً حتى أن العمال شكوا فيها أولا واعتقدوا أنها ترمى إلى خدمة رجال الصناعة حتى يستطيعوا خفض الأجور أو عدم تحسينها إذا ما فتحت أبواب البلاد للقمح الأجنبى الأرخص ثمنا. ومما يذكر بالفضل للعصبة الجديدة أنها قامت بمهمة سامية هى تعليم الشعب الإنجليزى فى المدن والقرى الكثير من المبادىء الإقتصادية والآراء السياسية فى وقت لم يكن الأدب السياسى رخيصا ميسورا مما يجعله فى متناول أكبر عدد من الناس. لقد كانت الجمعية تنشر على الشعب البيانات والمعلومات حتى بلغ عدد النشرات التى وزعتها تسعة ملايين. وفضلا عن هذا فقد انحاز إلى صفها العمال وأرباب الصناعة وبذا وفقت بين العمل ورأس المال فى سبيل تحقيق غرض واحد حتى أصبح الجميع يطالبون بالإلغاء السريع الكامل لهذه القوانين البغيضة.

أما دزرائيلى فقد ظل دائما معاديا لهذه الحركة وخصما لها. ففى سنة ١٨٣٢ — قبل تأليف العصبة بست سنوات — قال: «خفضوا الأعباء الثقيلة الواقعة على صدر الفلاح ثم بعد ذلك خففوا الحماية التى تمنحونها له بنفس النسبة. هذه هى الوسيلة التى تحصلون بها على خبز رخيص ... بدون أن تهدموا المصلحة التى هى أساس كل سعادة اجتماعية سليمة». وفى وقت آخر قال: «لمصلحة من تريدون إلغاء قوانين الغلال؟» وأجاب عن هذا

السؤال بأن الإلغاء يخدم مصالح الرأسماليين الصناعيين وحدهم ، وهؤلاء كونوا حزباً يسعى إلى تحقيق هذا الغرض بحجة السعى إلى خفض الإيجار ، ثم قال : إن الغاية الحقيقية لهؤلاء هى هدم ذلك النظام السياسى الذى يقوم على تفوق أصحاب المصالح الزراعية أى الملاك . ولما قال أنصار الإلغاء إن هذا العمل كفيل بخلق أسواق جديدة للمصنوعات الإنجليزية وبذا تصبح انجلترا المصنع الذى يمون العالم بحاجته ، عارض دزرائيلى واعتبر ذلك من الفروض التى تستمد الوحى من النظريات الإقتصادية دون إقامة وزن للإعتبارات العملية ، وحذر البلاد من اتباع سياسة تقوم على دعم الصناعة وحدها وإهمال الزراعة فتصبح البلاد عالة على غيرها . فكأن دزرائيلى عدو لحرية التجارة حرصا على صالح الزراعة الإنجليزية ، وفضلا عن هذا فهو من المعجبين بالأرستقراطية الزراعية القديمة والتى يعدها الأساس الصالح للنظم القائمة ، ولذا نظر إلى الإلغاء كوسيلة من جانب رجال الطبقة الوسطى لهدم هذه الأرستقراطية دون أن يصحب ذلك مثلا سعى إلى رفع شأن الطبقات الفقيرة .

ظلت وزارة الهويج قائمة بالحكم فى وجه مشكلات معقدة واضطرابات اجتماعية واقتصادية لم تستطع أن تجد لها العلاج الحاسم ، وكان أعظم مصادر ضعفها عجزها عن تدبير موازنة الميزانية سنة بعد أخرى . ومع ذلك أبت أن تخلى مكانها

لخصومها ، تتلقى الهزائم واللطمات فى داخل المجلس وخارجه . أما خصومها أو بعبارة أخرى بيل فكان موقفهم ممتازا بالشذوذ والجمود ، حتى سخط الكثيرون من المحافظين على زعمائهم ، واتهم البعض دوق ولنجتون بأنه هو الذى يعمل على إبقاء الهويج فى الحكم لأنه لا يريد أن ينزل إلى الميدان السياسى أو يعود إلى الكفاح ، وهنا ظهر مقال بإمضاء Atticus (وهو اسم مستعار اختاره دزرائيلى) فى صحيفة التيمس (١١ مارس ١٨٤١) هوجمت فيه خطة زعماء المحافظين لأن السياسة البرلمانية ، التى تسمح فى الوقت نفسه بقيام الهويج بمقاليد أمور الحكومة مستندين إلى أغلبية من المحافظين ، هى سياسة بعيدة عن روح الحكمة وبعد النظر .

حاول الهويج معالجة اضطراب الميزانية الناشىء عن سوء حالة المحاصيل الزراعية والتجارة بالسير نوعا فى اتجاه حرية التجارة ، فقر رأيهم على خفض الرسوم المفروضة على السكر والخشب الواردين من الخارج وإجراء تعديل بسيط فى الرسوم التى على القمح ، ومن هنا كان خطأهم لأن البلاد كانت قد تشبعت بفكرة الإلغاء الشامل لقوانين الغلال ، وكان المفروض أن الهويج وهم أنصار المبادىء الحرة هم الذين يقومون بهذه المهمة خاصة وأن الذين انتخبوهم ليسوا السادة المزارعين كما هو الحال مع المحافظين . غير أنهم كانوا يخشون القيام بهذا

العمل حتى لاينشق الحزب على بعضه لأن بعض رجالهم كانوا على ارتباط وثيق بذوى المصالح الزراعية ومتأثرين بأهدافهم . ومن هؤلاء بالمرستون نفسه إذ كان شديد المعارضة لأى سياسة ترمى إلى تطبيق مبدأ حرية التجارة على القمح ، وعلى هذا أصبح لابد من أشخاص آخرين للانتقال بالبلاد إلى عهد جديد ، وانتقلت الزعامة إلى أيدى الراديكاليين والمحافظين الأحرار بزعامة بيل .

قدمت الوزارة ميزانيتها إلى المجلس ، وبعد مناقشات حامية دارت ثمان ليال هزمت بأغلبية ست وثلاثين صوتاً . وقد خطب دزرائيلى خطبة كانت ذات تأثير فعال أكسبته الثناء من بيل كما قال لاخته فى خطاب إليها (١٥ مايو) . أرادت الوزارة بعد هذه الهزيمة أن تتراجع فى مسألة الرسوم على السكر ، وهنا قدم بيل اقتراحا بعدم الثقة ونجح فيه بأغلبية صوت واحد . وبدلا من أن تقدم الوزارة استقالتها حلت المجلس وأجرت انتخابات جديدة أسفرت عن هزيمة الهويج . ولكن الوزارة واجهت المجلس برغم ذلك ولم ترفع استقالتها إلا بعد أن عدل المجلس خطاب العرش بأغلبية تسعين صوتاً . وقد تكلم دزرائيلى أثناء مناقشة التعديل وحمل بشدة على الحكومة التى ظلت متمسكة بالحكم برغم سحب الثقـــة منها فى البرلمان السابق ، وبرغم ما أعربت عنه البلاد فى الإنتخابات من عدم الرضا بها . وهذا

الذى نادى به دزرائيلى مبدأ جديد فى النظام الدستورى حتى أن جراهام وستانلى من المحافظين لم يكونا ممن يحبذونه . ولكن دزرائيلى فى المستقبل هو الذى سيثبت دعائم المبدأ الدستورى الذى يقضى باستقالة الوزارة إذا كان المجلس الجديد مخالفاً لها ولسياستها .

الفصل السادس

الخيانة العظمى

أو

دزرائيلى وروبرت بيل

لما أجريت الإنتخابات تقدم دزرائيلى عن دائرة شروزبرى، وهناك صرح أنه يؤمن بأن مصالح الزارع والصانع والتاجر متماثلة، وأنه سيقاوم أية محاولة لتضحية أحدهم لحساب مصالح غيره الوهمية. وأعلن كذلك أن أهدافه هى المحافظة على الدستور ومصالح الطبقات، وحريات الشعب. ولما استقالت وزراة ملبورن استدعت الملكة ڤكتوريا سير روبرت بيل وعهدت إليه القيام بأعباء الحكم. واعتقد الكثيرون أنه لابد محتفظ بمنصب لدزرائيلى. ولكن مرت الأيام دون أن يبعث فى طلبه مما حمل الأخير على إرسال كتاب يذكر فيه جهوده الطويلة والأعباء التى تحملها والأموال التى أنفقها فى سبيل نصرة الحزب وخدمة السياسة التى يدعو إليها الزعيم، وختم كتابه برجاء أن يذكره بيل وبذا ينقذه من إذلال قد يتعرض له. وفى الوقت نفسه

كتبت زوجته إلى رئيس الوزراء فى هذا المعنى وقالت : « إن حياة زوجى السياسية ستسحق إلى الأبد إذا لم ينل تقديركم ». رد بيل على دزرائيلى ينفى أنه كلف أحداً بمفاتحته ، ومحاولا الإشارة الى قلة عدد المناصب التى عليه أن يملأها . ويبدو من ثنايا الرد أنه يجاهد فى تبرير موقفه . ومن المؤكد أن رئيس الوزراء كان يقدر دزرائيلى ومواهبه ، وكثيراً ما امتدحه وأثنى عليه . ويبدو أنه أرغم على هذا المسلك بسبب ضغط كبار أعوانه ، فستانلى مثلا صرح أنه « لن يظل فى الوزارة إذا دخلها ذلك الوغد » ، كما أن كبار المحافظين من الأرستقراطية مثلا كانوا يعدون دزرائيلى دخيلا ومغامراً بدأ حياته بالاشتغال بكتابة القصص ، ومتزوجا من سيدة ثرثارة يدل نظام بيتها وتأثيثه على فساد ذوقها . ومن الجائز أن بيل استاء من هذا الطلب من جانب تابعه فى الوقت الذى احتفظ غلادستون بكرامته حتى أنه حين عرض عليه منصب تساءل فى دهشة إن كانت سياسة الوزارة الدينية تسمح له بالدخول فيها .

هكذا أغفل بيل أحد أنصاره الممتازين بالنشاط والمقدرة والجرأة . وهو ما لم ينسه دزرائيلى فى المستقبل . بل لابد وأن يحاسب زعيمه على هذا الخطأ حسابا عسيرا إذا ما تجمعت أسباب أخرى تتصل بالمصلحة القومية واختلاف وجهات النظر فى السياسة التى يجب اتباعها إزاء المسائل المختلفة . دخل دزرائيلى

المجلس ووجد وجوها كثيرة تشخص إليه ، بل اعتقد البعض أنه سينقلب على رئيس المحافظين . ولكنه حافظ على هدوئه ولم يغير موقفه لأنه لا يريد أن يستبق الحوادث أو يتعجل تطورها .

كان برلمان ١٨٤١ يضم جماعة من شباب النواب تربطهم صلة الدراسة والزمالة فى إيتون وكمبردج ، وكذلك رابطة وحدة الآراء فى المسائل المتعلقة بالدولة والكنيسة . وقد عرفت هذه الجماعة باسم « انجلترا الفتاة » . وكان جورج سميث الروح التى تحرك هذه الفئة، وكان ذا شخصية ساحرة ومواهب عقلية عظيمة . ومن الأعضاء كذلك لورد چون مانرز (الإبن الثانى لدوق روتلاند) وهو دون زميله من حيث المواهب . ولكن المهمة لم تكن هينة ، فهناك عجز الميزانية وانحطاط شأن التجارة وشيوع الفاقة والبؤس . وقد حاول رئيس الوزراء معالجة الأمر فى الميزانيات التى قدمها فى سنوات (١٨٤٢ — ٤٥) ، فألغى معظم ما تبقى من الرسوم على المصنوعات المصدرة والواردات من المواد الأولية ، وعوض النقص الذى أصاب الميزانية بإعادة ضريبة الدخل . وقد خفضت هذه الميزانيات الرسوم المفروضة على القمح قليلا ولذا لم تواجه مقاومة جدية من جانب حزب الحماية الجمركية لأن الرسوم التى ألغاها بيل كانت فى الواقع ذات صفة إيرادية ولا يقصد بها الحماية على الإطلاق . غير أن الصعاب

كانت تواجه بيل فهناك المشكلة الأرلندية التى دارت بصددها مناقشات طويلة ، كما أن أصحاب المصالح الزراعية بدأوا يلمسون فى سياسة زعيم المحافظين اتجاها خطيراً نحو سياسة حرية التجارة وبخاصة عند ما منح امتيازات للقمح الأمريكى ، ثم جاءت النكبات فى أفغانستان وإن كانت من مخلفات سياسة الهويج ، وكذلك نجد الشعب الذى اعتاد سياسة بالمرستون العنيفة الصاخبة ساخطا على سياسة لورد أبردين الخارجية . وخلال هذه المسائل كان دزرائيلى يصوت إلى جانب الحكومة إلا فى مسألة القمح الأمريكى . ولكن عند القراءة الثالثة للمشروع الأرلندى Irish Arms Bill إنحاز إلى جماعة انجلترا الفتاة بخطاب أعده بعناية فائقة وهاجم سياسة العداء نحو الكاثوليك التى جرى عليها الهويج ويحاول المحافظون انتهاجها كذلك . ثم حدثت ثورة فى صربيا أدت إلى اضطراب العلاقات بين الروسيا وتركيا ، ففتح بالمرستون باب المناقشة عن الموقف فى الشرق ، ثم خطب دزرائيلى على أثر بيل وانتقد بعنف ما أبدته الحكومة من عجز فى سياستها الخارجية ولخص سياسته الخارجية فى وجوب المحافظة على الدردنيل ومنع اقتراب الروسيا منه . وهكذا نجد دزرائيلى يهاجم رئيسه هجوما مباشراً وعنيفا فى الوقت نفسه . وبعد ثلاثة أشهر من ذلك الحادث كتب إلى سير چيمس جراهام يطلب وظيفة لأخيه (٢١ ديسمبر ١٨٤٣) ، فرفض جراهام بطبيعة

الحال ، لأنه خطاب وقح ، وخاصة بعد سلوكه ولغته فى مجلس العموم . وقد ترتب على مسلك دزرائيلى أن أهمل بيل دعوته إلى اجتماع عام من المحافظين مما حمل النائب على أن يكتب إلى رئيسه محتجا بأن سلوكه لم يكن ليبرر مثل هذا الإغفال ، فجاءه الرد يعزو عدم دعوته إلى موقفه من المسائل العامة التى تسير عليها الوزارة.

زاد انحراف دزرائيلى عن الوزارة ورئيسها ، وزاد هجومه عنفا ، واستخدم فى ذلك كافة الأسلحة التى فى جعبته . فقال مرة لناخبيه « لقد ناصرت حزب المحافظين طالما تمسكوا بمبادئهم ، فلما خرجوا على هذه المبادىء صوتت ضدهم ... كثيراً ما أعربت عن مشاعرى بالأسف عند ما اختلفت مع الحزب ، ولكنى أفضل ألا أكون شيئاً عن أن تكون مهمتى مجرد تسجيل قرارات الحكومة » . وهذه العبارة تلقى ضوءاً على الرجل ، فهو لا يريد أن يكون من نمر البرلمان أو أولئك الأعضاء الذين تنحصر مهمتهم فى الموافقة والتأييد على طول الخط حتى ولو خالف ذلك ما يعتقدون فى قرارة نفوسهم . الواقع أن الشخصية الكبيرة لتنفر من أن تقف هذا الموقف فتلغى نفسها وعقلها فى سبيل مناصرة رأى الحزب الذى تنتمى إليه .

اشتد نشاط جماعة انجلترا الفتاة وكان هؤلاء الشباب من المشبعين بروح الرومانتيسزم الجديدة ولذا سخطوا على ذلك العصر الذى ساده مذهب المنفعـــة ، وأسفوا على تأثر الناس

بالناحية المادية وسعيهم وراء الثروة ومغالاتهم فى تقدير الآلات دون أن يعنوا بالمثل العليا والمصالح السامية للإنسان .

ومن حيث مبدأهم السياسى كانوا يؤمنون أن النظام الملكى ليس وسيلة للحكم ، وإنما هو مبدأ ثابت الأصول ، ولهذا فمن أوجب الأشياء العمل على أن يستعيد العرش كرامته ونفوذه وكانوا يريدون للكنيسة قدراً من الإستقلال أكبر مما تنعم به ، وينظرون بعين السخط إلى الطبقة الوسطى وتفوقها ، ويرون أنه لحفظ التوازن ينبغى إعادة طبقة النبلاء والأرستقراطية إلى مركزهم السابق فى زعامة الشعب ، ولن يتأتى هذا إلا إذا أدرك الأخيرون الواجب الملقى على عاتقهم . وفضلا عن هذا كانوا يشعرون بعطف صادق على الشعب ، يؤمنون بالطبقات الدنيا من المجتمع ، ويعتقدون أن فى الإمكان رفع هذه الطبقات من البؤس الذى انحدروا إليه . وكانوا يظنون فى بادىء الامر أن فى استطاعة روبرت بيل أن يحقق هذه الأهداف التى وضعوها نصب أعينهم ، ولكنهم ما لبثوا أن وجدوا فيه سياسيا ذا طابع عملى لايشبع خيالهم وآمالهم ، فضلا عن أنه يمثل الطبقة الوسطى التى يشعرون نحوها بالكراهية الشديدة ويخشون تفوق نفوذها وسلطانها . وما لبث أن نشأ التوافق بين أفراد هذه الجماعة ودزرائيلى بسبب اشتراكهم فى اعتناق آراء واحدة من حيث الرغبة فى إصلاح حزب التورى على أساس شعبى ، والمحافظة

على نفوذ الطبقات العليا القديمة، والعطف على الطبقة الدنيا، وكراهية جماعة الهويج، والنفور من مبادىء الطبقة الوسطى. وكان هؤلاء القوم يعجبون بعبقرية دزرائيلى ومواهبه. كما أنه من جانبه أدرك مزايا التحالف مع هؤلاء الذين ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية التى يعجب بها ويعـــدها أقوى دعائم المجتمع الإنجليزى. وقد أشبع غرورهم وشبابهم بأن أظهرهم فى رواياته فسميث هو بطل رواية Coningsby ، كذلك الثانى هو لورد هنرى سيدنى فى نفس القصة. وقد ظهرت هذه القطعة من الأدب السياسى فى عام ١٨٤٤ وعنوانها « كوننجسبى أو الجيل الجديد » فلقيت نجاحا كبيرا ورواجاً عظيما لأنها من جهة عدت إفصاحاً عن برنامج جماعة انجلترا الفتاة، ومن جهة أخرى إلى ما تضمنته من إشارات إلى بعض الساسة الأحياء. والقصة سخرية لاذعة لتفاهة الآراء السياسية السائدة، واحتقار للساسة من الهويج والتورى. فالأولون يدعون أنفسهم أحراراً وهم يكرهون الحرية، والمحافظون ليس لديهم ما يحافظون عليه. ثم تمجد الرواية الفرد صاحب العبقرية. ولكن ماذا يفعل الفرد إزاء الرأى العام؟ إنه يفعل كل شىء لأن الله خلق الفرد على صورته، أما الرأى العام فالذى يخلقه هم رجال الصحافة وأعضاء البرلمان ومن على شاكلتهم! ثم ما هو هدف الشباب؟ إنه السعى إلى إنشاء الحكومة التى يحبونها حبا صادقاً لا التى يكتفون بتأييدها

وإنها لرسالة خالدة توجه إلى الشباب فى كل عصر وفى كل بلد .

لا شك أن الأمة عندما طلبت بيل ليتولى الحكومة إنما أعربت عن أملها فى أن يتمكن من معالجة المشاكل . وحدث فى ١٣ مارس سنة ١٨٤٥ أن ألقى ريتشارد كوبدن أعظم خطاب له ضد قوانين الغلال . أصغى رئيس الوزراء ثم التفت إلى سيدنى هربرت أصغر أعضاء وزارته سنا وطلب إليه الرد . وقف هربرت يتكلم ولسوء الحظ وردت فى خطابه العبارة التالية : « إن من الأشياء الكريهة إلى النفس أنه كلما حدث ضيق مؤقت يأتى الزراع يصرخون ويشكون إلى البرلمان » . وهنا كانت الفرصة التى يترقبها دزرائيلى فقال : « لا شك أن هناك فرقا بين سلوك السيد المحترم كزعيم للمعارضة وموقفه بصفته كرئيس لوزراء التاج . . . إنى لأذكر تلك الخطابات العظيمة التى ألقاها دفاعاً عن سياسة الحماية » ثم هاجم صمت بيل الذى ينم عن الصلف ، وبروده الذى يدل على الكبرياء ثم قال : « ولكن السيد المحترم إذ وجد نفسه مضطرا أن يتدخل يرسل إلينا تابعه » . ثم ختم خطابه بهجوم عنيف على حكومة المحافظين وأسماها « نفاقا منظما » . واشتد الهجوم على رئيس الوزراء وشبهه بأمير البحر التركى الذى بعث به السلطان على رأس أسطول لمقاتلة العدو ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك استسلم لخصمه ودافع عن نفسه بقوله : « إن السبب الوحيد الذى

حملنى على قبول القيادة كان رغبتى فى أن أضع حدا للصراع بخيانة سيدى » .

وفى جلسة ١٥ مايو سنة ١٨٤٥ كانت القراءة الأخيرة لمشروع إلغاء قوانين الغلال ، وحمى وطيس المناقشة بعد أن انقسم المحافظون ولم يبق مع بيل سوى مائة منهم . وحدث أن بدت اشارة إلى الخطاب الذى سبق أن أرسله دزرائيلى فى عام ١٨٤١ عند تشكيل الوزارة ، وهنا وقف يقول : « لن أطلب مطلقا أى منصب لأن هذا العمل غريب عن طبيعتى .. ولم أطلب خدمة من الحكومة حتى فى المسائل العادية التى يضطر أى شخص إلى طلبها .. وفيما يتعلق بشخصى لم أطلب منصبا سواء بالطريق المباشر أو غير المباشر » . هكذا أسلم نفسه إلى سير روبرت بيل الذى كان الخطاب فى حافظة أوراقه الموضـــوعة أمامه . ولكن بيل التزم الصمت ولم يفعل شيئا كان فى استطاعته أن يضرب به النائب المتمرد ضربة عنيفة . وفى نهاية الجلسة وافق المجلس بأغلبية ٩٨ صوتاً على القانون بإلغاء قوانين الغلال على أن يسرى مفعول ذلك ابتداء من عام ١٨٤٩ . وبهذا انتصر انتصارا حاسما على دزرائيلى وأنصار الحماية . ولكن تحالف هؤلاء مع الهويج وهزموا الحكومة ونالوا ثأرهم إذ قدم بيل استقالته مباشرة . هكذا حطم الرجل حزبه وأبعده عن الحكم سنوات طوالا فى

سبيل ايمانه بأنه يؤدى خدمة إلى البلاد ، وقد حققت الأيام رأيه وأثبتت أنه كان على حق .

لقد تولى بيل الحكم فى ظروف حرجة حاول كما قلنا التخفيف من شدتها فى ميزانياته ولكنه كان يتحول تدريجا عن مبادئه ، ويتجه شطر ناحية حرية التجارة نظراً لما رآه حوله من بؤس الطبقات العاملة والعمال الزراعيين ، وبفضل الحجج الإقتصادية التى كان يدلى بها كوبدن . ولكن الذى ساعد على تحوله هذا هو أن العصبة التى أنشأها كوبدن كانت حجة قوية يستند إليها أولئك السادة الذين لم ينسوا الدرس الذى تعلموه أثناء الاضطراب الذى صحب حركة المطالبة بالإصلاح النيابى . رأى بيل كذلك أن هذا القانون الذى سبق أن هاجمه باعتباره عمل ثورى ، لم يسر بالبلاد كما يجب وأن مجلس العموم لا زال مجلس الملاك ، وبدأ يخشى أنه إذا ظل يدافع عن قوانين الغلال حتى اللحظة الأخيرة فقد ينتهى الأمر بصراع بين الحكومة والشعب يعصف بالأولى . أو كما علق على ثورة فرنسا فى عام ١٨٤٨ بأن « هذا يتأتى من محاولة حكم البلاد عن طريق تمثيل ضيق النطاق فى البرلمان دون مراعاة رغبات الشعب ، وهذا ما كان الحزب يريد منى أن أعمله بصدد مسألة قوانين الغلال وأبيت أن أحقق رغبتهم . وفى سنة ١٨٤٥ كان قد تحول نهائيا عن تمسكه بسياسة الحماية ، واعتزم أن يصارح الشعب بذلك ويقنعه بوجهة نظره فى

الإنتخابات القادمة حتى لايقال إنه خدع الناخبين وخان وعوده السابقة . غير أن الظروف أجبرته على العمل السريع ، ذلك أن محصول البطاطس فى أرلنده أصيب بعجز كبير وأصبحت البلاد مهددة بالمجاعة ، وما كان فى الاستطاعة مد يد العون من انجلترا إذ كان بمحصول البلاد نفسها من القمح عجز بسبب رداءة الأحوال الجوية . هنا قامت عصبة أعداء قوانين الغلال بأعظم حملة فى تاريخها ، وصار كل فرد يطالب بالإلغاء «الشامل السريع» ، وانحاز الهويج إلى هذه النظرية حينما كتب زعيمهم لورد جون رسل خطاب إدنبره المعروف معرباً عن رأى الشعب فى الموضوع. أصبح لابد من التنفيذ العاجل إما على يد بيل وإما عن طريق الهويج . ولكن ستانلى عارض سياسة رئيس الوزراء الذى عجز عن حمل الوزارة على تأييده وقدم استقالته إلى الملكة فى ديسمبر سنة ١٨٤٥ . استدعى رسل لتأليف الوزارة . فعجز بسبب خلاف بين بعض أعوانه ممن أراد ضمهم إلى الوزارة . ولكن الواقع أن الهويج لم تكن لديهم الجرأة الكافية لتنفيذ هذه السياسة على الوجه الأكمل ، وخشوا العجز عن نيل موافقة مجلس الأعيان ولم يريدوا الدخول فى نزاع كما فعل لورد جراى فى سنة ١٨٣٢ . وبرغم أنهم كانوا يدعون أنهم ممثلو الشعب فإنهم لم يشاءوا القيام بحملة ضد هذا المجلس ، ولهذا فضلوا أن يدعوا الأمر لبيل وهو من المحافظين . فى هذه اللحظة الحاسمة تقدم بيل فى شجاعة وانحاز

إليه دوق ولنجتون لأنه يراه أصلح رجل للحكم ، ولأنه يعتقد أن عليه واجباً هو خدمة الملكة والشعب .

أخذ بيل على عاتقه فوز المشروع ونجح الأمر فى مجلس العموم كما أشرنا ، ثم مر القانون فى مجلس اللوردات فى ٢٦ يونيه . وفى هذه الليلة بالذات هزم بيل وثأر دزرائيلى . لقد فضل الزعيم أن يتهمه أعوانه بخيانة الحزب عن أن يذكره التاريخ بالرجل الذى خان قضية البلاد فى أحرج لحظاتها . لقد أحدث تعديلا خطيراً فى سياسة انجلترا الإقتصادية ، وتضاءل شأن الحماية ، وحتى أنصارها أخذوا يفقدون ثقتهم فيها بعد أن شاهدوا تحسن مستوى المعيشة ، وتقدم التجارة ، وازدهار الصناعة ، وبعد أن لمسوا سنوات أن إلغاء قوانين الغلال لم يؤد إلى نكبة الزراعة الإنجليزية كما كانوا يتوقعون . وستثبت الأيام أن أزمة الزراعة فى تلك البلاد راجعة فى أساسها إلى عوامل أخرى أبعد غوراً .

الفصل السابع

الزعيم

هكذا استقال بيل بعد أن تحطم حزب المحافظين مما أتاح الفرصة لخصومهم الأحرار الذين ظلوا فى الحكم زهاء ثلاثين عاما . وهى فترة بدأت بانقلاب خطير الشأن فى سياسة البلاد الإقتصادية . وتميزت بتطورات وأحداث ، وشاهدت قيام عصر جديد من الإصلاح .

تولت وزارة لورد چون رسل ، ولكنها كانت ضعيفة لعدم استنادها إلى أغلبية فى مجلس العموم . ولم يساعدها على البقاء سوى انقسام المحافظين إلى فريقين يشعر كل منهما بالمرارة والكراهية نحو الآخر . فأنصار بيل لم ينسوا كيف عومل زعيمهم ، وبمرور الزمن انحاز بعضهم إلى حزب الأحرار ، ومن هؤلاء لورد أبردين وغلادستون . وكانت جماعة أنصار الحماية فقيرة فى الرجال الأكفاء الموهوبين ، وليس فيهم من يصلح لقيادتهم سوى دزرائيلى نفسه . وقد تولى رآسة الجماعة فى مجلس العموم اللورد چورج بنتنك الذى اتخذ دزرائيلى نائبا ومعاونا له ، لأنه كان يقدر كفايته ويثق فى ولائه وإخلاصه

ويؤمن بشجاعته . أما ستانلى زعيم الجماعة فى مجلس اللوردات فلم يكن يميل إلى دزرائيلى . ولعلنا نذكر ما سبق أن قاله بشأنه . رضى دزرائيلى بالموقف لأنه يجيد الانتظار حتى يحين الوقت المناسب ، وأخـــذ يمثل دور المعارضة بما أكسبه الاحترام والتقدير من الخصوم والأصدقاء . وحدث أن انتخب روتشيلد عن لندن ولكنه لم يستطع أن يتخذ مقعده فى مجلس العموم إذ لابد له أن يقسم اليمين حسب الديانة المسيحية ، وهنا اقترح رسل إلغاء الصيغة لأنه يؤمن أن لكل انجليزى الحق فى أن ينعم بكافة مزايا الدستور . وقف دزرائيلى يؤيد المشروع ؛ وضرب على نغمة الارتباط الوثيق بين المسيحية واليهودية ، ومما قاله « من هؤلاء الذين يعتنقون الديانة اليهودية ؟ إنهم نفس الأشخاص الذين يعترفون بالله كما يفعل المسيحيون فى هذه الدولة. إنهم هم الذين صاغوا دينكم ! » . فهو يبنى تأييده المشروع على فكرة الحقيقة الدينية ، لا على أساس مبدأ الحرية الدينية . وقد دهش المجلس لذلك ، ولا شك أن الرجل أبدى شجاعة نادرة باتخاذ مثل هذا الموقف وهو يعرف ميول الحزب الذى يتزعمه ، وقد رُفض المشروع وصوت أنصار الحماية ضده ، باستثناء زعيمهم ونائبه . ولما عرضت الوزارة ميزانية الدولة هاجم دزرائيلى سياسة الحكومة التجارية . غير أن أهم خطاب ألقاه كان بصدد ماقترحه هيوم من الإصلاح البرلمانى . وفى

هـــذا الخطاب هاجم المشروع المقترح وقانون سنة ١٨٣٢ على أساس أنهما يجعلان حيازة الأملاك المؤهل الوحيد لممارسة الحقوق السياسية، دون أى اهتمام باعتبارات أخرى تجعل الإنتخاب أقرب إلى تمثيل العناصر المختلفة كالطوائف المتعلمة والطبقات العاملة فى الصناعة. وهاجم كذلك فكرة تقسيم البلاد إلى دوائر متساوية إذ معنى هذا أن ننزع السيد من جهته الدائمة ونلقى به إلى مدينة مثل برمنجهام. وأعلن أن هذه المطالب إن هى إلا حركة مدبرة من جانب الطبقة الوسطى بغية زيادة نفوذها على حساب الأرستقراطية والطبقة العاملة. ثم استعرض تاريخ التشريعات السابقة فبين كيف أن الطبقة الوسطى حررت العبيد ولكنها لم تقدم مشروع الساعات العشر للعمال، وكيف أن القوانين التى صدرت وجهت همها إلى رأس المال وأهملت العمل ومصالحه، وكيف انها جميعاً لايبدو فيها أى أثر للعطف على العمال. ويظهر من أقواله أنه جعل غايته تقييد النفوذ الواسع الذى حازته الطبقة الوسطى فى ظل قانون ١٨٣٢، وذلك بتقوية طبقة الملاك الزراعيين، وتحوير القوانين بحيث تسمح بتمثيل العنصر العمالى فى البلاد بدرجة تتفق وتغير الأحوال والظروف.

قضت الوزارة عشرة أشهر دون أن تعمل شيئاً يستحق الذكر كما وعدت فى برنامجها، ولما ووجهت بهذه الحقيقة ألقت

اللوم على المجلس الذى يستغرق الوقت فى المناقشات . هنا وقف دزرائيلى يدافع عن المجلس وينسب الأمر كله إلى سوء الادارة الحكومية وعجز الوزراء ، وإذن لاعجب أن رأينا عدداً كبيراً من المشروعات المقدمة من الحكومة قد امتدت إليها يد التعديل والتشويه أو سحبت بعد ذلك ، ولا عجب أن تميزت الدورة « بفتنة فى انجلترا ، وتمرد فى أرلنده ، وثورة فى أوربا » ، وما ذلك إلا نتيجة لقيام حكومة ليست لها أغلبية برلمانية ، وخلص من من هذا كله بأن صرح أن الحكومة الحزبية هى أساس التقدم والنجاح ، والواقع أن الوزارة كانت تعتمد على تأييد أحزاب عدة لابد من إرضاء زعمائها ولهذا كان كل مشروع يقدم إلى المجلس يتعرض للتعديل المستمر حتى يخرج مشوهاوقد فقدمميزاته الأولى . كان خطاب دزرائيلى قويا إلى حد كبير ، وهذا الخطاب هو الذى ثبت زعامته وإن لم يكن بصفة رسمية .

ذكرنا أن بنتنك صوت إلى جانب المشروع الخاص بمسألة القسم . وقد أغضب تصرفه هذا زملاءه ، ولما فاتحوه فى الأمر غضب وتنحى عن رآسة الحزب وإن ظل موالياً له . غير أن موته واجه الحزب بأزمة شديدة إذ صار من المتعين اختيار زعيم يصلح لقيادته وتولى المعارضة فى داخل مجلس العموم . وقد توقع الكثيرون أن يخلع هذا الشرف على دزرائيلى لأنه اكفأ رجال هذه الجماعة بلا منازع حتى أن مالمسبرى قال عند سماعه بنبأ موت

بنتنك ، ليس هناك سوى دزرائيلى يستطيع أن يملأ مكانه ، بل إن الصحف أخذت تخوض فى الموضوع ، وكتبت جريدة Morning Chronicle لسان حال أتباع بيل تؤكد قرب انتخابه . ولكن كانت هناك عقبات كثيرة تحول دون ذلك . فالكثيرون ينظرون إليه على أنه رجل يحوطه الغموض ولا يدرى أحد عن أهدافه الحقيقية شيئاً ، كما أن فى بعض خلقه وطباعه مايجعله يبدو غريباً على البيئة الإنجليزية . وفضلا عن هذا لم ينس القوم موقف ذلك الرجل الغامض إزاء مسألة القسم ، كما ساءهم رأيه عن العنصر اليهودى فى كتاب نشره باسم Tancred ومجد فيه هذا الشعب ، وأخذوا يذكرون كيف أنه لم يعتنق المسيحية إلا بعد سنوات من ميلاده . وأخيراً فقد كان لورد ستانلى لا يميل إليه خاصة وأن اختياره للزعامة لن يسمح مطلقاً فى المستقبل بإمكان تحقيق تآلف حزب المحافظين من جديد ، لأن نفراً من أكفاء أتباع بيل كانوا يضمرون الكراهية الشخصية لدزرائيلى ولا يغفرون له انقلابه على رئيسه وغدره به . وإزاء هذا كتب ستانلى إليه خطاباً أوضح فيه حرج الموقف ، وبين الحاجة إلى اختيار زعيم للحزب فى مجلس العموم . ثم أثنى على دزرائيلى معرباً عن تقديره العظيم له وبخاصة مقدرته التى لا تجارى فى المناقشة ومركزه الممتاز فى المجلس ، ولكنه أبدى أسفه على عدم انتخابه نزولا على رأى أغلبية الحزب ، ثم اقترح اسم Herries بدلا منه ورجا دزرائيلى أن يقف

موقف المعاونة الصادقة . فجاءه رد مهذب ولكنه بارد . غير أن هريس أبى المنصب بسبب السن إذ بلغ الثامنة والستين . وهنا تقرر تأليف لجنة من ثلاث أحدهم دزرائيلى تتولى توجيه الحزب فى المجلس . ولما افتتحت دورة سنة ١٨٤٩ صار من الواضح أن دزرائيلى هو الزعيم الفعلى وخاصة عند ما رجاه ستانلى أن يكون لسان حال المعارضة فى تقديم الاقتراح بتعديل خطاب العرش . ولم تنته الدورة حتى تحدث عنه الخصوم والأنصار بصفته الزعيم ، فقد أشار رئيس الوزراء فى خطابه الرسمى للملكة إلى زعامة دزرائيلى على أنها حقيقة واقعة ، ووصفه وزير المالية بأنه « الزعيم الحقيقى لحزب قوى » ، وتحدث رسل عن أنصار الحماية بأنهم « أتباع دزرائيلى » . وهكذا أصبح الرجل زعيما للحزب لا نتيجة انتخاب نظامى ، ولكن طبقاً لعملية التطور التى قضت بانتقال الزعامة إلى الأصلح[1] .

وخلال المدة التى بقيت فيها وزارة رسل فى الحكم تكلم دزرائيلى مراراً عن سياسة الحكومة فى المسائل الخارجية . ويمكن تلخيص آرائه فى هذا الموضوع فى أنه يريد المحافظة على السلام على أساس التفاهم الدائم مع فرنسا ، والتقيد بالالتزامات التى تفرضها المعاهدات الدولية ، واجتناب التدخل فى المسائل الداخلية المتعلقة بالأمم الأخرى بخلاف سياسة بالمرستون التى

(١) Monypenny and Buckle : Life of Disraeli, Vol. I p. 957.

أثارت عداء الدول لانجلترا، وكذلك بالابتعاد عن السياسة القائمة على أساس العاطفة كالتدخل فيما لايهم البلاد الإنجليزية بحجة مناصرة الديموقراطية وتأييد الحركات القومية وتعديل الحدود الموضوعة. وبعبارة أخرى هو من أنصار السلام مع الشرف، أى السلام الذى تصحبه المحافظة على المصالح الإنجليزية ومصالح الإمبراطورية البريطانية.

ومن المسائل التى كانت تشغل باله ما وضعه نصب عينيه من حيث تعليم حزب المحافظين من جديد وخلق روح ومبادىء جديدة فيهم. لقد انفصلت جماعته عن بيل بسبب الخلاف على مسألة الحماية التجارية، ولكن الحماية ليست عقيدة لأنها لا تزيد عن كونها وسيلة لتحقيق غاية هى خير الزراعة الإنجليزية. وقد أثبتت الأيام أن حرية التجارة لم تكن نكبة على انجلترا، وأدرك دزرائيلى بثاقب فكره أن محاولة إعادة الحماية لن يقدر لها النجاح إذ لابد وأن تصطدم بمقاومة عنيفة من جانب معظم الطبقات، بل إن كوبدن نفسه قد حثه على الإقلاع عن هذه السياسة لأن عصرها قد انتهى. وفضلا عن هذا، إذا استطاع حمل الحزب على التنحى عن هذه السياسة فقد يصبح فى حيز الإمكان تضييق الهوة التى تفصله عن جماعة بيل، ولعل هذا يسهل عودة المحافظين جميعاً إلى وحدتهم فيصبحوا قوة هائلة ويستولوا على أعنة الحكم بعد إبعاد الهويج الذين يعدهم دعائم الطبقة الوسطى التى يكرهها.

أما وقد استقر رأيه وحزم أمره على هذا الإتجاه الجديد ، لهذا نرى معارضته فى المجلس تتخذ مظهرا آخر فهو لا يجعل مسألة الحماية فى المقدمة وإنما عمل على المطالبة بتخفيف الأعباء الواقعة على الزراعة . فى التعديل المقدم على خطاب العرش فى دورة ١٨٤٩ قال : إن السياسة التجارية الجديدة قد أتيحت لها فرصة كافية لتجربتها ولكنها أخفقت ، ثم أشار إلى أن السياسة الصحيحة هى القائمة على مبدأ المعاملة بالمثل أو التبادل بطريقة تعود بالخير على انجلترا كما تكون فى صالح المستعمرات . وفى نفس الدورة قدم اقتراحا بتأليف لجنة برلمانية للنظر فى الأعباء الملقاة على عاتق الأرض وبخاصة ماتعلق بعدم المساواة فى توزيع الضرائب المحلية ، إذ ليس من العدل أن يقع عبء المحافظة على الفقراء وإعانتهم ومسائل الإدارة وإصلاح الطرق على الأرض وحدها وهى التى تمد البلاد بربع إيراداتها ، مع أن هذه المسائل من الواجبات الإجتماعيـــة التى ينبغى أن تتحملها كل أنواع الملكية . رفض المجلس الاقتراح بأغلبية ٩١ صوتاً ، ولكن النتيجة كانت مرضية من وجهة نظر دزرائيلى ، وهنأه أصدقاؤه وخصومه السياسيون على حد سواء . ولم تقف جهوده عند هذا الحد بل إنه سعى إلى إقناع رجال الحزب بصلاحية رأيه ، وبأن ينبذوا الأمل فى العودة إلى سياسة الحماية ، وأن يجعلوا هدفهم المطالبة بسياسة المعاملة القائمة على مبدأ التبادل . ولهذا لما حدثت

حركة بين بعض طوائف الزراع للمطالبة بالحماية لم يعمل على تشجيعها لاعتقاده أن هذه الحركة مآلها الفشل، بينما كان لورد ستانلى يؤيدها ويرجو من ورائها خيرا. وقد كان من أثر محاولات دزرائيلى مع رجاله أن تلقى خطاباً فى أكتوبر سنة ١٨٤٩ من ستانلى بشأن هذا الموضوع. وقد أوضح الأخير أنه ليس على استعداد لنبذ مبدأ الحماية الجمركية، كما أنه يرى من المستحسن عدم تثبيط همم بعض من يلتمسون العودة إليها، ثم أبدى قلقه بشأن ما يشعر به دزرائيلى من اليأس فى إمكان التحول عن سياسة حرية التجارة بعد أن اتضح للكثيرين أن الآمال التى عقدت عليها كانت سرابا خدّاعا. وعلاوة على ذلك فنى رأيه أن سيطرة الحزب على البلاد راجعة إلى التمسك بالمبادىء التى حارب من أجلها، وعلى ذلك فإذا تحول عنها فقد تأييد تسعة أعشار أنصاره. وأخيرا فهو لا يوافق على العبارة التى ابتدعها دزرائيلى وهى «إعادة إنشاء الحزب» لأنها تحمل معنى تغيير الخطة والمبادىء. ولكن دزرائيلى ثابر على خطته وانحاز إلى رأيه عدد من رجال الحزب.

ولما بدأت دورة عام (١٨٥٠ — ٥١) طالب من جديد بتأليف لجنة للنظر فى تخفيف أزمة الزراع بإعادة النظر فى قانون مساعدة الفقراء، وهنا حدثت مفاجأة لم يتوقعها أحد ذلك أن غلادستون وقف يقول إن الزراع على حق فى شكواهم، وإن

الاقتراح وسيلة مشروعة لإزالة الشكوى . ولما أخذت الأصوات رفض الاقتراح بأغلبية ٢١ صوتاً فقط ، وصوت إلى جانبه أكثر من ٢٠ من الهويج وما يقرب من ٢٠ من رجال بيل . ولا شك أن نتيجة الاقتراع كانت فوزا باهراً لدزرائيلى الذى استطاع بمهارته وكفايته أن يهبط بأغلبية الحكومة إلى هذا الحد . وبعد ذلك أخذ البرلمان يبدى اهتماماً بمشكلة الزراعة ، وتقدم بعض الهويج باقتراحات معينة حتى أن نفراً منهم أشار بفرض رسم استيراد على القمح ، كما رأى آخرون إلغاء ضريبة الجعة ، ومعنى هذا أن يضيع على خزانة الدولة مبلغ ضخم يربو على أربعة ملايين ونصف مليون من الجنيهات سنويا .

وفى يونيه سنة ١٨٥٠ مات سير روبرت بيل ذلك الرجل الذى ضحى بالحكم والمنصب فى سبيل تنفيذ سياسة أعتقد أنها فى صالح بلاده . وقد شجع هذا الحادث دزرائيلى على أن يفكر بصفة جدية فى تآلف فريق المحافظين ، خاصة وقد أوضحت الدورة إمكان التعاون بينهما كما حدث من غلادستون مثلا . وفعلا اتصل بجراهام وغيره ، ولكن تحطمت المحاولة بسبب تمسك ستانلى بمبدأ الحماية ، وإصرار أنصار بيل على أن يصرح الآخرون علانية بأنهم قد أقلعوا نهائيا عن سياستهم .

وحدث أن هزمت الحكومة فى فبراير سنة ١٨٥١ فقدم رسل استقالته واستدعت الملكة ستانلى فاعتذر بعدم وجود

رجال أكفاء فى حزبه عدا دزرائيلى ، ونصحها بتأليف وزارة ائتلاف من الهويج وأتباع بيل . عملت الملكة بنصيحته واستدعت زعماء الحزبين ولكن الفكرة لم تنجح ، واضطرت الملكة إلى استدعاء ستانلى من جديد ، فأخذ هذا يتصل بدزرائيلى وعقد اجتماعا من أنصاره واستعرض الأسماء التى يصح التقدم بها إلى الملكة . ولكنه ما لبث أن شعر بخيبة الأمل وصرح لمولاته بالعجز عن أداء المهمة التى كلف بها . ولاشك أن دزرائيلى لم يكن ليوافق على هذا التراجع بعد أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من المنصب ، ولم تعجبه بطبيعة الحال تلك الخطط التى لا تتميز بالجرأة والشجاعة . وإذ وصل الموقف إلى هذا الحد بقيت وزارة لورد رسل فى الحكم ، وهاجمها دزرائيلى مرة هجوما رائعا حين بين أن واجبها أن تقدم بلا إبطاء التشريع اللازم للتخفيف عن أزمة الزراع . وحتى لا يتهم بأغراض خفية صرح أنه لا يرمى من وراء ذلك العودة إلى نظام الحماية لأنه يعتقد أن هذا لن يكون إلا بموافقة المجلس الدالة على تغير رأى أغلبية الشعب . قاومت الحكومة واستطاعت حمل المجلس على رفض الاقتراح ولكن بأغلبية هزيلة هى ١٤ صوتا مما حمل دزرائيلى أن يقول لأحد أصدقائه إنه واثق من أن الحكومة لن تتمكن من الثبات وقتا طويلا ، خاصة وأن الميزانية التى قدمتها قوبلت من الجميع بمظاهر الازدراء والاستنكار

فى ديسمبر سنة ١٨٥١ ارتكب وزير الخارجية بالمرستون خطأ عندما أعلن موافقته على الانقلاب الذى أحدثه نابليون فى فرنسا ، دون استشارة زملائه فى الوزارة أو معرفة رأى الملكة فى الأمر . وهنا أخرجه رسل من الوزارة وكان ينفر من سياسة التحدى التى جرى عليها الوزير كأنما أراد أن يكون هو المسيطر الوحيد على الحكومة .

ولكن فى الشهر التالى لإخراج وزير الخارجية انتقم لنفسه بأن صوت وأنصاره ضد مشروع قدمته الحكومة لتقوية نظام الميليشيا . وإزاء هذه الهزيمة التى منيت بها الوزارة قدم لورد رسل استقالته فى فبراير سنة ١٨٥٢ .

استدعت الملكة لورد دربى[1] وعهدت إليه بتشكيل وزارة .

---

(١) هو ستانلى المعروف لنا

الفصل الثامن

وزارة المالية

حل البرلمان فى أول يوليه سنة ١٨٥٢ وأفهم اللورد دربى الملكة أنه سيحصل على الأغلبية فى الانتخابات ، وأنه قد عدل نهائياً عن فكرة فرض رسم على القمح . ولكنه لم يوضح هذا لجمهور الناخبين وهو خطأ كان له ثمنه إذ لو فعل ذلك لاستطاع أن ينال تأييداً فى المدن . أما دزرائيلى فكان صريحاً فى أثناء الحملة الإنتخابية فصرح بضرورة تعديل نظام الضرائب المحلية حتى يصبح أدنى إلى العدالة ، وإعادة النظر فى نظام الضرائب الأهلى بما يؤدى إلى خفض نفقات الإنتاج ، ثم أعلن بلا لبس أو غموض أن الحكومة ليست لديها نية إرجاع القوانين التى ألغيت فى عام ١٨٤٦ . ومعنى هذا كله أن الحزب قد نبذ رسمياً سياسة الحماية الجمركية . ولكن لم يستطع المحافظون أن يحرزوا الأغلبية ، لأن بعضهم لم يعدل عن آرائه القديمة ، كما أن الهويج أذاعوا أن دزرائيلى إنما غير لهجته على سبيل الدعاية ، وأن الحزب إنما يخاطب الدوائر حسب ميولها . غير أن البرلمان الجديد تميز بنقص كبير فى عدد أنصار بيل إذا لم يتجاوزوا الأربعين . وإذا انتهت

المعركة الإنتخابية أكب دزرائيلى على إعداد الميزانية التى يعلق عليها الآمال فى بقاء الوزارة فى الحكم . غير أنه واجهته عقبة خطيرة ذلك أن قيام الإمبراطورية الثانية بفرنسا على يد نابليون الثالث أثار بعض المخاوف فى البلاد الإنجليزية ، وخشى البعض أن يكون ذلك الحادث مقدمة لنشوب حروب جديدة ولهذا طالبت الملكة ورجال الحربية والبحرية بتقوية وسائل الدفاع من قبيل الاحتياط . وبرغم أن دزرائيلى كان يدرك أن هذه المخاوف لا أساس لها فانه اضطر أن يدخل بعض التعديلات على الميزانية خاصة وأن زملاءه فى الوزارة كانوا فى صف التاج بصدد وسائل الدفاع .

كان بقاء المحافظين فى الحكم نتيجة انقسام المعارضة والخلاف بين رجال الهويج . وفجأة تغير الموقف حين أعلن رسل عدم تمسكه برآسة الوزارة ، وهنا اشتد ساعد المعارضين ، وأخذ خصوم الوزارة فى مهاجمتها قائلين إن خطبة العرش لم تكن صريحة فى موضوع الحماية أو الحرية ، فغلادستون طالب بتسوية هذه المسألة بصفة نهائية ، وأصر كوبدن على ضرورة صدور تأكيد قاطع من الحكومة بأنها لن تعدل عن السياسة التجارية القائمة ، وحتى بالمرستون — الذى كان موقفه من الوزارة ودياً — رأى أن تصريحاً رسمياً فى هذا الشأن يكون فى صالح البلاد .

وأخيراً قدم وزير المالية الميزانية فى ديسمبر وهى تقوم على

مبادىء مختلفة أهمها العمل على أن يتفق نظام الضرائب فى البلاد مع السياسة التجارية القائمة ، وتخفيف حدة العداء بين الريف والمدن ، واتباع سياسة عادلة إزاء المصالح التى تأثرت بإلغاء الحماية ، وإلغاء مظاهر الشذوذ الواضحة فى نظام الضرائب ، وإرضاء أصحاب المصالح من الزراع بدون إثارة غضب المدن . وقامت الميزانية على مبدأ حرية التجارة ولكنه أراد العمل على التخفيف عن مصالح ثلاث هى السفن والسكر والزراعة . فألغى رسوماً كان أرباب السفن يشكون منها ، وعمل على إعانة صناعة السكر ، وقرر الإلغاء التدريجى لنصف ضريبة الشاى لصالح المستهلك ، وإلغاء نصف الضريبة على الجعة من الشعير وحشيشة الدينار . وأهم ما فى الميزانية الطريقة التى أراد بها علاج ضريبة الدخل ففى خطاب أبريل أوضح أن الضرائب المباشرة يجب أن تكون عامة مع التمييز بين الدخول الدائمة وغير الثابتة وهو مبدأ عُمل به فى المستقبل .

هكذا ألقى دزرائيلى بيانه فى الثالث من ديسمبر أمام مجلس يضم ثلاثة من وزراء المالية الذين تقدموه ، وكوبدن الذى أصغى لعله يجد فى البيان مايشتم منه رائحة سياسة الحماية ، وغلادستون صاحب السمعة العالية فى المسائل المالية . وقد استغرق إلقاء البيان خمسة ساعات متوالية مع أنه لم يشف من الأنفلونزا التى أصابته إلا قبل ذلك بوقت وجيز . ولكن المعارضة هاجمت الميزانية بعنف ، فانتقد غلادستون أى تعديل فى نظام ضريبة الدخل

وأى تمييز بين أنواع الدخول ، واعترض النواب الأرلنديون على تطبيق ضريبة الدخل على بلادهم ، ووصف وود الميزانية بالتهور الزائد عن الحد ، واحتج جراهام على توسيع نطاق الضرائب المباشرة . وأخيراً وقف دزرائيلى ليتكلم فانتقد العبارات التى تفوه بها خصومه لانها غير عادية وغريبة عن الوسط النيابى ، أما وود الذى اتهمه بالتهور فى مسألة توسيع نطاق ضريبة الدخل فيظهر أنه نسى أنه طالب المجلس يوماً بالموافقة على مضاعفة ضريبة الدخل فى وقت لم تمس الحاجة إلى شىء من هذا فلما رفض المجلس وأذله عاد فعدل عما طلب . ثم قال دزرائيلى « ان الناس لن تصدق فى المستقبل المؤرخ الذى يحدثهم أن وزيراً جاء إلى المجلس يطلب مضاعفة الضريبة فلما رفض اقتراحه جاء فى اليوم التالى ليعلن أن الوسائل التى بين يديه كافية بدون الحاجة إلى تنفيذ اقتراحه ، ثم انتقل إلى الاعتراض بأن خفض ضريبة الجعة لن يفيد المستهلك فقال إن هذا رجوع إلى حجة أنصار الحماية حينما ألغيت الضريبة على القمح « أتقولون لى إن الحماية قد ماتت ! أتقولون إنه ليس فى البلاد حزب للحماية ! لماذا ؟ إنه حزب واسع الإنتشار وهو قائم بيننا ! » . ثم تابع كلامه « لقد نصحنى وود أن أسحب الميزانية كما فعل بت ، وانا أعلم أن غيره قد فعل نفس الشىء حديثاً . » ثم أشار إلى وود بإصبعه وقال « إذا كنت لا أصبو إلى شهرة بت فإنى لن أهبط إلى الإذلال الذى قبله سواه . » . وبعد ذلك

التفت إلى مقاعد الهويج وأتباع بيل قائلا « إن علىّ أن أواجه إئتلافا . قد ينجح الائتلاف فقد نجح مثله من قبل ، ولكن — انتصاره قصير الأمد . . وأعلم كذلك أن انجلترا لا تحب الائتلاف . إنى احتكم إلى الرأى العام الذى يحكم هذه البلاد ، هذا الرأى العام الذى يستطيع بتأثيره الهادىء الذى لا يقاوم أن يتحكم حتى فى قرارات البرلمان » . جلس دزرائيلى فى وسط عاصفة من الهتاف أثارها رجال حزبه ، وهنا قدمت المعارضة غلادستون لذى أطال فى نقد الميزانية بطريقة أحدثت أثرها فى جو المجلس وعند الساعة الرابعة صباحا أخذت الأصوات ولم تنل الحكومة سوى ٢٨٦ ضد ٣٠٥ ، مما حملها عل تقديم استقالتها ، وأعلن دزرائيلى النبأ إلى المجلس فى اليوم التالى .

وبرغم قصر المدة التى قضتها وزارة درىى فى الحكم ، وبرغم عدم استنادها إلى أغلبية فقد قامت بأعمال لها أهميتها فسوت مشكلة الاعتراف بنابليون الثالث بطريقة ودية ، وعملت على تقوية الدفاع الوطنى بفضل قانون الميليشيا ، وأثبتت للبلاد بما لا يحتمل الريب أن السياسة التجارية لن تعدل .

تألفت وزارة ائتلاف ولم يكن غريبا أن ينضم الهويج إلى جماعة بيل إذ تضمهم الكراهية للمحافظين ودزرائيلى . وكان فريق كبير من الجماعة الثانية يشاركون أمثال بالمرستون فى اعتقادهم أن البلاد قد حصلت على القدر الكافى من الإصلاح النيابى وأن

الدستور ليس بحاجة إلى التغيير ، وفضلا عن هذا فإن آراء الحزبين متماثلة من حيث الإيمان بسياسة حرية التجارة . وقد اختير لورد أبردين للرآسة وأشرك معه نفراً من الممتازين أمثال غلادستون للمالية ورسل للخارجية وبالمرستون للداخلية حتى تحدثوا عن الوزارة بأنها تمثل كافة ذوى المواهب والكفايات . أما توزيع المقاعد الوزارية فلم يكن متناسبا مع عدد أنصار كل حزب فى المجلس ، فنال كل من الهويج ورجال بيل ٦ مقاعد ، وخصص منصب واحد للراديكاليين ، مع أن الأخيرين كان لهم فى المجلس ما يقرب من ١٥٠ نائبا ، وكذلك نلاحظ أن الجماعة الأرلندية لم يمثلها أحد فى الحكومة الجديدة . وما كان من المنتظر أن تظل الوزارة فى الحكم طويلا لولا أن نشأت ظروف سياسية خارجية هى التى ثبتتها فى كراسى الحكم ، كما أن هذه الأحداث نفسها هى التى ستلقى بها خارج الحكم فيما بعد .

وإذ انتقل دزرائيلى إلى المعارضة أخذ يوزع جهوده فى نواح مختلفة ، فعمل أولا على تنظيم حزب المحافظين فى داخل المجلس حتى يجعل منهم كتلة واحدة متماسكة بحيث تسير وراء زعمائها وتؤيد قراراتهم وآراءهم ، وفى الوقت نفسه سعى إلى تنظيم لجان الحزب فى الدوائر الانتخابية استعداداً للمستقبل ، لأنه تعلم من دروس الماضى أهمية التنظيم الحزبى فى البلاد والحاجة إلى توضيح مبادىء الحزب للبلاد والسعى إلى اجتذاب الرأى

العام . وإلى جانب ذلك رأى من ألزم الأشياء إنشاء صحيفة أسبوعية تكون لسان حال المحافظين ووسيلة لإبداء آرائهم فى نقد سياسة الحكومة وهكذا ظهرت صحيفة أسبوعية وجند لها الكثيرين من الأكفاء وكان يكتب فيها بنفسه كثيرا . ومن أمثلة الهجمات التى شنتها الصحيفة على الوزارة ما جاء فى أحد أعدادها « ما الذى دعا إلى عدم الاستمرار فى التقاليد الدستورية؟ لماذا لا يحكم البلاد حزب الأحرار أو حزب المحافظين ؟ إن هذا راجع إلى اسباب شخصية تافهة فقط » . وعالجت الصحيفة مسألة الإصلاح النيابى بروح حرة حيث قالت : « إن الواجب الملقى على عاتق الساسة .. أن يدخلوا فى نطاق الدستور كل شخص لا يكون دخوله فى هذه الدائرة مصدر خطر » .

أما داخل المجلس فإن دزرائيلى اتخذ موقف المعارضة الصالحة إزاء الحكومة القائمة ، فلما قدم غلادستون الميزانية لم يستنكرها خصمه بل بالعكس هنأه عليها فى نواح معينة قائلا إن معظم الأسس التى تقوم عليها هى نفس المبادىء التى أعدت ميزانية العام السابق بمقتضاها ، ولكنه انتقد بعض مظاهرها وتفصيلاتها الأخرى . ولما قدمت الحكومة مشروع قانون بشأن الهند انتهز دزرائيلى الفرصة وهاجم سياسة توزيع السلطة بين هيئات ثلاث هى الحاكم العام ومجلس إدارة شركة الهند الشرقية ولجنة المراقبة التابعة للحكومة البرلمانية ، وذكر أن هذا التوزيع

الخاطىء لم ينجم عنه سوى فساد الحكم وعجز الإدارة وانتشار الحروب والفتن وأعمال الفوضى . ثم اعترض على الحكومة إذ تسرعت بعرض مشروع بالغ الأهمية كهذا فى أواخر الدورة النيابية ، ونصح بتأجيل النظر فيه حتى يتسنى للمجلس التوافر على دراسته بطريقة وافية . غير أن الحكومة كانت حريصة على أن ينجح المشروع المقدم منها ، ولذا أقره المجلس بأغلبية كبيرة . غير أن أقوال دزرائيلى تلقى ضوءاً على نظرته إلى الموضوع ، فهو يريد انتقال السلطة الفعلية فى الهند إلى أيدى التاج والبرلمان . وقد أثبتت حوادث الثورة الهندية فيما بعد صدق رأى الرجل فى مساوىء توزيع السلطة والإشراف على شؤون الهند .

لما تولى السلطان عبد المجيد عرش الدولة العثمانية عمل على إصلاح أحوالها الأمر الذى أدخل الخوف فى نفس الروسيا خشية أن تكون هذه الإصلاحات مقدمة لنهضة تحول دون تحقيق الأطماع الروسية ، ولذا عرضت على الحكومة البريطانية حل المسألة الشرقية بصفة نهائية على أن تنال انجلترا مصر مقابل ذلك ، فأبت انجلترا الموافقة على سياسة كهذه لأنها كانت تعد سلامة الدولة العثمانية ضماناً لمواصلاتها مع الشرق . وهنا حدث أن تنازل السلطان عن بعض مفاتيح الأماكن المقدسة فى بيت المقدس إلى الكاثوليك مما أغضب الأرثوذكس ، ووقف نابليون الثالث إلى جانب الكنيسة اللاتينية حتى يكسب عطف

الكاثوليك فى بلاده وحتى يعاكس القيصر الذى كان يطمع فى تكوين تحالف ضد فرنسا عندما قام نابليون بانقلابه المعروف. هكذا تطورت مسألة تافهة حتى أصبحت صراعاً بين دولتين كبيرتين ثم انتهى الأمر بحرب قيل فى شأنها: «إن الدم الذى أهرق فيها ترتب على خلاف بشأن مفتاح ونجم».

لجأ القيصر إلى الإرهاب وطلب من الدولة العثمانية أن تعترف به الحامى الشرعى للمسيحيين فى مختلف أرجائها، وهذا طلب ينم عن المغالاة فى الادعاء، إذ معناه أن يصبح للروسيا السيطرة الفعلية على أملاك تركيا فى القارة الأوربية. ولم يقف القيصر نيقولا عند هذا الحد، بل إنه أرسل منشيكوف إلى الأستانة يهدد السلطان إن لم يرضخ لمطالب روسيا، ولكن الأخير أبى إجابة هذه الدعاوى، فما كان من القيصر إلا أن أرسل جيوشه لاحتلال ولايتى الأفلاق والبغدان فى يوليو سنة ١٨٥٣.

لم يكن لانجلترا صالح فى هذا الخلاف الدينى الخاص بالكنيستين، ولكن العمل الذى أقدمت عليه حكومة القيصر عد نذيراً خطيراً ومقدمة للزحف على الأستانة والقضاء على سيادة الدولة العثمانية فى البلقان. حقيقة لم تكن وزارة لورد أبردين راغبة فى الاشتباك فى حرب مع الروسيا، ولكنها لم تكن لتسمح لهذا الإعتداء، أن يمر ببساطة، ولذا أوعزت إلى السفير البريطانى فى الأستانة، لورد ستراتفورد دى ردكليف، أن يقاوم السياسة والأطماع

الروسية . وكان الأخير واسع الدراية بشؤون الشرق وعدوا للروسيا ، ونصحه لورد بالمرستون أن يتخذ خطة الحزم وأن يقف إلى جانب السياسة الفرنسية التى أوعزت إلى السلطان أن يقاوم المطالب الروسية . عقد مؤتمر فى ڤينا وضع صيغة غامضة بخصوص حق حماية المسيحيين ، فرفضتها تركيا وأصرت على أن يعترف لها صراحة بأنها وحدها صاحبة الحق فى حماية الرعايا التابعين لها . فاجتمع مؤتمر ڤينا من جديد ، ولكن حدث أن دمر الأسطول الروسى عمارة عثمانية فى سينوب وبذا أصبحت له السيادة فى البحر الأسود ، ونشبت الحرب بين الدولتين وأرسلت انجلترا وفرنسا أساطيلهما إلى البحر الأسود ، الأمر الذى عده القيصر إهانة بالغة . ثم أرسلت الدولتان الغربيتان إنذاراً إلى الروسيا يطلبان فيه إليها احترام سلامة الدولة والجلاء عما احتلته من الأراضى العثمانية والاعتراف للسلطان بحقه الكامل المطلق فى كل ما له علاقة برعاياه المسيحيين . وإذ أبت الروسيا الانصياع إلى الإنذار انحازت الدولتان إلى تركيا وبعد قليل نشبت حرب القرم (١٨٥٤) .

لم يكن دزرائيلى مسئولا عن هذه الحرب ، وقد خطب فيما بعد ذلك بعشرين عاماً وقال : « لم يكن هناك أدنى دليل على إمكان نشوب حرب القرم حينما اعتزلنا الحكم ، ولكن قيصر الروسيا اعتقد أن خلف لورد دربى لم يكن عدوا للاعتداء الروسى فى الشرق » . ولما ترامت أنباء الخلاف كثرت الأسئلة فى البرلمان

الإنجليزى . وكانت الوزارة الائتلافية تقلل من شأنها وتجيب على الأسئلة الموجهة اليها بما يبعث الطمأنينة فى النفوس ، وقد قنع دزرائيلى بالأسئلة يوجهها إلى الحكومة ولكنه أخذ عن طريق صحيفته يهاجم السياسة الخارجية متهماً إياها بالتردد وعدم الاستقرار . وقد كتبت الصحيفة تقول : « إننا على وشك مشاهدة أحداث عظيمة ، وإنه ليحسن بالبلاد أن تكون على استعداد لوقوعها .. إن غلطة واحدة فى إدارة شؤوننا الخارجية قد تكلفنا أكثر من عدة سنوات من المحاصيل السيئة » . وفى مقال آخر حملت الصحيفة على الوزراء وتصريحاتهم وأعمالهم وترددهم .

وفى الوقت الذى كانت التطورات الخارجية تنذر بالخطر الشديد تقدمت الوزارة ببرنامج من التشريع يشمل مشروعا من رسل للإصلاح البرلمانى ، وهنا احتج دزرائيلى على الوزارة التى تقدم إلى المجلس برنامجاً لإصلاح نظام الخدمة فى الحكومة والمحاكم الكنسية وقانون الفقراء ومجلس العموم فى الوقت الذى تعلم أنها على وشك الانغماس فى صراع أوربى عظيم . وقد سخر دزرائيلى من هؤلاء الساسة بقوله : « ظننت أننا سنعلن الحرب على الروسيا ولكنى أرى اليوم أننا على وشك إعلانها على أنفسنا » . ولما أصبحت الحرب حقيقة واقعة انتهز دزرائيلى الفرصة ، وألقى المسئولية على عاتق رئيس الوزراء الذى سبق له أن تفاهم مع

القيصر فى عام ١٨٤٤ على أن حل المسألة الشرقية مما يعنى الدولتين وحدهما دون الاهتمام بإشراك فرنسا فى الأمر ، وبذا خيل للقيصر أخيراً أن حكومة أبردين لن تقاوم مشروعاته بصدد تركيا ، وكان يحسن بالحكومة الإنجليزية حين علمت بتوجه منشيكوف إلى الأستانة أن تصرح بجلاء أنها تعتزم الوقوف إلى جانب فرنسا ولن تسمح مطلقا بتجزئة الدولة العثمانية . ولكن هذا لم يمنعه من أن يعلن أنه يعارض السياسة الروسية « لأن نجاحها فى الاستيلاء على الأستانة معناه ازدياد نفوذها فى السياسة الأوربية ، الأمر الذى يصبح مصدر خطر على المدنية الأوربية ، ويعود بالضرر على المصالح البريطانية » . فهو اذن يعد حرب القرم « عادلة ، وإن لم يكن هناك داع لها .

لقد دخلت انجلترا الحرب وهى غير مستعدة لها مطلقا ، فالجيش قد تناقص عدده وأعوزه التدريب والمران إذ لم يشترك فى حرب أوربية منذ معركة واترلو ، وكان الضباط لا يقلون عن الجنود جهلا بالفنون الحربية الجديدة ، وفضلا عن هذا كانت وسائل الإمداد والتموين تسودها الفوضى ومظاهر الاضطراب .

تمكن الأتراك من إجلاء الروس عن بلغاريا ، كما أن الأخيرين ما لبثوا أن جلوا عن الأفلاق والبغدان عسى أن يستدرجوا الحلفاء إلى داخل البلاد الروسية . ولكن هؤلاء نقلوا أعمالهم

الحربية إلى شبه جزيرة القرم، وعمدوا إلى مهاجمة ميناء سباستبول، غير أن عملهم جاء متأخراً مما أتاح للروس فرصة تحصين هذا الميناء بحيث لم يكن للمدافع الأرضية والبحرية تأثير له أهميته. بدأ الحصار وطال زمانه، وقد أحرز الحلفاء النصر فى بلاكلافا وإنكرمان ولكنهما من المواقع غير الحاسمة. ثم أقبل الشتاء الروسى بقسوته وأخذ بخناق الجنود، اذ لم يكن فى الحسبان أن تدوم العمليات الحربية وقتاً طويلا، وانتشر المرض فى صفوف الجيش الإنجليزى بحيث أرسل لورد رَجلان القائد العام إلى حكومته فى يناير سنة ١٨٥٥ أن الجيش يضم ١١٠٠٠ يحملون السلاح، ١٣٠٠٠ فى المستشفيات.

ترامت الأنباء إلى انجلترا ووجدت فيها الصحف مادة وفيرة، واستغلتها المعارضة فى تشديد الهجوم على الحكومة، واتهمتها بالعجز والقصور، وثارت فى البلاد عاصفة من الغضب والسخط. وفى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٥٤ دعى البرلمان إلى اجتماع غير عادى للنظر فى الوسائل التى تكفل مواصلة القتال بما يلزم من الحزم والشدة. ولكن كل ما قامت به الحكومة تقديم مشروع يمكنها من استخدام ١٠٠٠٠ من الجنود الأجانب. ولا ريب أن عملا كهذا فيه جرح كبير للعزة القومية، وحملت عليه المعارضة فى المجلسين. وقد قال دزرائيلى إنه لا يعترض على اشتراك مواطنيه فى القتال مع الأجانب إذا كان الأخيرون حلفاء، ولكنه لا

لايقبل بأى حال من الأحوال أن يحارب مواطنوه جنباً إلى جنب مع المرتزقة . وقد مر المشروع بأغلبية ١٣ فى مجلس اللوردات، ٣٩ فى مجلس العموم . ثم تأجل البرلمان فى ٢٣ ديسمبر بمناسبة عطلة عيد الميلاد ، ولما عاد إلى الاجتماع (٢٣ يناير ١٨٥٥) تقدم النائب الراديكالى روبك باقتراح تأليف لجنة تحقيق ، وهنا قدم رسل استقالته وبذا تصدع الإئتلاف الوزارى ، وأصبح واضحا أن بقاء الوزارة فى الحكم مسألة أيام معدودات وقامت المعارضة بالحملة على الوزراء وطلبت اليهم الخروج من مناصبهم . وفى اليوم الأخير من المناقشة فى الاقتراح وقف دزرائيلى يخاطب المجلس قائلا « ليست لدى أدنى ثقة بالحكومة القائمة . لقد قلت ذلك منذ عام . . وإنى أسائل المجلس إذا لم تكن الإثنى عشر شهراً الماضية قد أثبتت صدق ظنى » . إنحاز الهويج من أنصار رسل ، ومعهم الراديكاليون ، إلى المحافظين ووافق المجلس على اقتراح روبك بأغلبية ساحقة . قدم الوزراء استقالتهم ، وأخفقت حكومة الإئتلاف كما تنبأ بذلك زعيم المحافظين من قبل . لقد كانت الوزارة تضم مختلف الكفايات فلم يمض على بقائها فى الحكم عامان حتى هوت بالبلاد إلى حضيض اليأس ، وما ذلك إلا لعدم توافر عناصر الانسجام والثقة المتبادلة ووحدة الرأى فى المسائل الداخلية والخارجية ، وبذا ثبت أن الحكومات

الحزبية أفضل بكثير من زميلاتها التى تستند إلى تأييد أحزاب مختلفة .

استدعت الملكة لورد دربى وكلفته بالنظر فى تأليف حكومة جديدة فقبل بشروط . ذلك أنه كان يعتقد بضرورة إشراك رجال من غير حزبه حتى يتسنى السير بالحرب إلى نهاية مظفرة ، ولذا أراد أن يضم بالمرستون إلى الوزارة وفاتحه فى ذلك الشأن فأبدى الأخير استعداده للمعاونة إذا قبل كل من غلادستون وسدنى هربرت الانضمام إلى الوزارة ، ولكن غلادستون علق موافقته على رضاء لورد أبردين . وأخيرا أبى بالمرستون قبول العرض المقدم من دربى ، لأنه يدرك أنه الشخص التالى الذى يقع عليه الاختيار . وإذ أخفقت محاولات دربى أعلن للملكة عجزه عن القيام بأعباء الحكم ، وبذا ارتكب خطأ جسيما ، لأنه لو قبل وسار بالحرب بحزم وانتهى الأمر بالنصر لرفع سمعة المحافظين ولاجتذب جانبا كبيراً من الشعب إلى الحزب ، ولكنه أضاع الفرصة وجعل الحزب يشعر بخيبة الأمل واليأس من هذا التصرف غير السديد .

دعت الملكة بالمرستون إلى تأليف الوزارة فقبل ووفق فى مهمته ، ومالبث أن نفخ من روحه فى الأعمال الحربية ، فتدفقت المؤن والإمدادات على الجبهة ومد خط حديدى من بلاكلافا إلى ساحة القتال ، وأصلحت المستشفيات التى كان الجنود يموتون

فيها بالألوف ، وبهذا أصبحت الظروف أدنى إلى إحراز النصر. وفى هذا الوقت انضمت بيدمنت إلى الحلفاء بفضل سياسة كافور الذى رأى فى ذلك فرصة لنيل عطف الإنجليز والفرنسيين فى سبيل تحقيق مهمته وهى توحيد إيطاليا . وبعد قليل مات قيصر الروسيا ، وما لبث حصن سباستبول ان وقع فى أيدى الحلفاء . اضطر القيصر أن يخضع للأمر الواقع وأدرك ان مواصلة النضال لن تعود عليه إلا بالخسارة والنكبات ، فدارت المفاوضات التى انتهت بعقد صلح باريس فى سنة ١٨٥٦ الذى أوقف — ولو مؤقتاً — تقسيم الإمبراطورية العثمانية .

وقد غضب بعض المحافظين للشروط التى اتفق عليها الطرفان وعدوها ثمنا ضئيلا للتضحيات التى تحملتها البلاد ، حتى أن لورد دربى استعمل فى مجلس اللوردات عبارة « تسليم باريس » بدلا من « صلح باريس » . غير أن دزرائيلى عدها مرضية ومنع حزبه من الهجوم العنيف على الحكومة بسببها .

الفصل التاسع

وزارة درلى الثانية

لما بدأت الدورة النيابية عام ١٨٥٦ دب نوع من الشقاق فى صفوف المحافظين إذ ظهرت جماعة تعارض دزرائيلى ذلك الرجل الغامض، وتنفس عليه زعامته، وتعجز عن إدراك أهدافه وسياسته، بل إنها أخذت تقول « اليهودى » فى معرض الإشارة إليه. وكان دزرائيلى يأمل أن يعيد إلى المحافظين وحدتهم التى تصدعت عام ١٨٤٦ وذلك بضم أتباع بيل. وكان يعتقد بإمكان حدوث ذلك الأمر، ويرتب عليه نتائج عظيمة من حيث توافر الأغلبية للمحافظين فيعودوا إلى الحكم بعد إقصائهم عنه عهداً طويلا. غير أن بعض أنصاره كانوا ينفرون من فكرة الانضمام هذه، لأنهم إما لا يؤمنون بإمكان تحقيقها، وإما بدافع الكراهية الشخصية لغلادستون وغيره. وفى الوقت ذاته كان بعض المحافظين لا يوافق على سياسة الزعيم الحرة فى مسائل التعليم. والواقع، أن هذه المظاهر نجدها كذلك فى الأحزاب لأن هذه الفترة من تاريخ انجلترا كانت فترة انتقال وتعين على الاحزاب أن تحدد برامجها وموقفها إزاء المسائل العامة

بشكل واضح مما سنعرض له فى فصل آخر .

أما حكومة بالمرستون فبدت ثابتة الأسس قوية الدعائم بفضل ما تمتع به رئيسها من سمعة عالية لما ناله من نجاح فى حرب القرم . ولكن أخذت سياسة الوزارة الخارجية تثير المعارضة تدريجا . ذلك أن شاه بلاد فارس كان قد انتهز فرصة حرب القرم فأقدم على غزو أفغانستان واستولى على هرات . ولما عقد صلح باريس رأى بالمرستون فى خريف عام ١٨٥٦ ضرورة العمل الحاسم وأرسل جيشاً من الهند احتل معظم موانى فارس الجنوبية واضطر الشاه نصر الدين إلى طلب الصلح مقابل الجلاء عن هرات . وفى سنة ١٨٥٧ قبضت السلطات الصينية فى كانتون على سفينة تجارية صغيرة ترفع الراية الإنجليزية وزجت ببحارتها فى السجن ، فما كان من بالمرستون إلا أن سير جيشاً وأسطولا لضرب الميناء ومعاقبة الحكومة الصينية على هذا العمل . أثار تصرف رئيس الحكومة استياء أمثال غلادستون والراديكاليين ولورد دربى . وكان دزرائيلى ينصح أتباعه بالحذر فى اتخاذ الحادث سبيلا لإخراج الحكومة التى قد تصوره للشعب على أنه اعتداء على كرامة البلاد . غير أن دربى هاجم الوزارة فى مجلس اللوردات هجوماً عنيفاً ، وكذلك فعل كوبدن وغلادستون ورسل وجراهام فى مجلس العموم ، واضطر دزرائيلى ان يتكلم ولكنه سما عن التفاصيل ، وأوضح أن أشد ما تحتاج إليه البلاد

هو أن تسير فى علاقاتها مع الصين وأمثالها من الدول الشرقية وفق مبدأ معين ، وذلك بأن تتعاون مع الدول الأوربية الكبرى فى التأثير على الحكومة الصينية وتعديل خطتها عن طريق المفاوضات والمعاهدات ، ثم طلب إلى الحكومة أن تلجأ إلى إستفتاء الشعب بصدد المسائل التالية، عدم ضرورة الإصلاح وهو ماتهمها به ،، فرض الضرائب الجديدة ، حادث كانتون ، غزو بلاد فارس . ، فما كان من بالمرستون إلا أن أجرى انتخابات جديدة هزم فيها المحافظون ، وعاد بالمرستون بأغلبية ٣٧٠ عضواً من مجلس قوامه ٦٥٠ .

وهكذا حققت الإنتخابات صدق ظن دزرائيلى من حيث عدم جدوى الالتجاء إلى أمثال هذه الحوادث لإخراج الحكومة، كما أن هزيمة المحافظين أوضحت ما بهم من عوامل الضعف والانحلال والشقاق . انتصرت الحكومة ولكنه انتصار قصير الأمد إذ ستهب العاصفة بعد قليل .

فى سنة ١٨٣٥ عينت حكومة ملبون لورد أوكلاند فى الهند وكانت الحكومة الإنجليزية تساورها المخاوف من جراء روسيا وتراها جارا خطيرا فى المستقبل القريب ، ولذا أقدم أوكلاند على عمل لا يدل على شىء من حسن السياسة إذ عزم على إخضاع أفغانستان للوصاية أو التبعية البريطانية ، وعزل الأمير دُست محمد ونصب مكانه منافسه الشاه شوجا واحتلت القوات كابل .

غير أن هذا العمل أثار القبائل، وطردت القوات وقوامها ١٥٠٠٠ رجل (يناير ١٨٤٢) واضطرتها إلى الارتداد بطريق الممرات الجبلية بحيث لم ينج منها سوى شخص واحد ليحمل أنباء هذه النكبة الهائلة والضربة القاسية لسمعة بريطانيا العظمى . سقطت وزارة ملبورن سنة ١٨٤١ وخلفتها أخرى برياسة بيل الذى عين لورد إلنبروه فى الهنـــد ، وهذا أقلع عن السياسة السابقة إزاء أفغانستان ولكنه قام بأعمال أخضع بها ولاية السند للنفوذ الإنجليزى . بعد ذلك وقعت المناوشات والحروب مع قبائل السيخ ، غير أنه فى سنة ١٨٤٩ توجه إلى الهند اللورد دالهوزى الذى بدأ عصراً جديداً فى الاستعمار البريطانى بالهند . وكان أول عمل له أن ضم بلاد السيخ وهى ولاية البنجاب ، وكذلك ترتب على الحرب الثانية مع بورما ضم رانجون ودلتا نهر إيراوادى . وتميزت ولاية دالهوزى بإصلاحات جريئة تصادمت مع روح المحافظة على القديم ، فعد الهنود الخطوط الحديدية والبرقية من أعمال السحر ، وساءتهم جهود المبشرين المسيحيين وانتشار بعض مظاهر الحضارة الأوربية . واتبع الرجل سياسة الضم المنتظم إذا مات الأمير بدون عقب . وتبعاً لهذه السياسة أضيفت ولايات وطنية مستقلة إلى أملاك شركة الهند الشرقية . أما ولاية أود فيرجع ضمها كما قيل إلى سوء الإدارة مما جعلها مركزا للفتن والاستياء . وفى ســـنة ١٨٥٦ صدر قرار يجعل الجنود

الوطنيين عرضة للسفر إلى خارج البلاد وركوب البحر إذا دعت الإعتبارات العسكرية ، وفى الوقت ذاته سرت إشاعة بأن الخرطوش المستعمل فى البنادق مدهون بشحم البقرة المقدسة والخنزير الدنس ، مما أهاج الجنود من الهندوس والمسلمين . هذان هما السببان المباشران للثورة التى بدأت فى ميروت على يد جيش البنغال (١٠ مايو سنة ١٨٥٧) ، ثم امتدت نيران الحركة المعادية للإنجليز إلى حوض الكنج الأعلى وأصبح البعض يعتقد أن حكومة الإنجليز فى تلك الإمبراطورية الشرقية المترامية الأطراف قد أشرفت على الزوال .

وصلت أنباء الاضطراب إلى لندن . ولكن لم تبد الحكومة اهتماماً بالأمر ، أو لعلها لم تنظر إليها على أنها حركة جدية ، ولذا فوجئت بنشوب الثورة علنا واتساع نطاقها . أما دزرائيلى فكان يدرك المغزى الذى تنطوى عليه الثورة ، وسأل الوزارة عن أسباب التمرد وهل هو مجرد حركة عسكرية أم أنه ثورة قومية . ولقد أوردنا من قبل رأى دزرائيلى بشأن فساد نظام الإشراف على الهند التى كان يعدها أثمن درة فى تاج الممتلكات البريطانية . وقد انتهز هذه الفرصة فأشار على الحكومة بما ينبغى عمله « سواء جاءت الأنباء بالهزيمة أو النصر ، فعليكم أن تفهموا الشعب الهندى أن علاقاته بحاكمه الحقيقى — وهو الملكة ڤكتوريا — ستزداد تقرباً وتوثقا .. يجب أن تبعثوا بلجنة ملكية فى الحال إلى الهند

لتعرف عوامل شكوى الطبقات المختلفة . ويجب أن يصدر أمر ملكى يعلن لأهل الهند أن ملكة انجلترا ليست بالحاكم الذى يوافق على نقض المعاهدات أو اضطراب نظام الملكية . بل إنها ستحترم قوانينهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وفوق كل شىء دينهم » . وبذا يبدو لنا كيف أن الرجل استطاع أن ينفذ إلى الأعماق ويحلل العوامل الأساسية فى نشوب الثورة . زادت الحالة سوءا كما دلت على ذلك الأخبار الواردة فى الخريف . وهنا قدم بالمرستون مشروعا أراد به القضاء على سلطان شركة الهند الشرقية ، ونقل الإشراف على الهند إلى أيدى مجلس ورئيس يكون نائب الملكة . وبرغم موافقة دزرائيلى على الفكرة من حيث المبدأ فإنه عارض المشروع على أساس أنه محاولة ظالمة من جانب الحكومة لتبرئة نفسها وإلقاء اللوم كله على الشركة ، كما أنه لم يكن يؤمن أن فى الإمكان تحسين الأحوال ما دام جماعة الهويج فى الحكم . ولكن الذى حطم وزارة بالمرستون حادث مفاجىء لم يكن فى الحسبان . ذلك أن أورسينى الإيطالى ألقى قنبلة على عربة نابليون الثالث ، واتضح أن الرجل أعد القنبلة ودبر المؤامرة فى لندن ، ولذا طالبت الحكومة الفرنسية بتعقب الشركاء والقضاء عليهم . قدم بالمرستون إلى البرلمان مشروع قانون يعاقب مؤامرات الاغتيال السياسى بالأشغال الشاقة المؤبدة سواء ارتكبت الجريمة فى داخل انجلترا

أم فى خارجها . ومن سوء حظ بالمرستون أن لهجة الصحافة الفرنسية وبعض عبارات رجال الجيش الفرنسى كانت مليئة بالوعيد والتهديد مما أثار غضب الإنجليز وحمل المجلس على رفض المشروع ، وازاء هذا بادرت الوزارة بتقديم استقالتها (فبراير ١٨٥٨) .

استدعت الملكة لورد درى ، ولما أخفق فى محاولته نيل تعاون رسل وغلادستون ، شكل الوزارة من المحافظين مع أنهم أقلية فى مجلس العموم ، وهو الأمر الذى جعل بقاءهم فى الحكم مسألة وقت ، ورهينا بزوال الخلافات بين زعماء المعارضة . والحقيقة أنه ليست هناك عقبة تواجه وزارة أعظم من عدم استنادها إلى أغلبية برلمانية تؤيد سياستها . وفضلا عن هذا واجهت الوزارة صعاباً أخرى منها استياء حكومة فرنسا ، وعدم إخماد ثورة الهند ، وبقاء حالة الحرب فى الصين ، والعجز الناشىء عن الأزمة النقدية التى وقعت فى الخريف السابق ، كما أن الوزارة وعدت بتقديم مشروعين بشأن الهند والإصلاح النيابى ، وكلاهما من المسائل الشائكة .

أخذ دزرائيلى بصفته وزير المالية فى إعداد الميزانية ، ولم يكن الأمر سهلا إذ تعين عليه مواجهة عجز قدره ٤ ملايين جنيه بسبب زيادة الاعتمادات البحرية والعسكرية ، والالتزام بدفع ٣½ مليون جنيه من دين الحرب ، وقد قدر هذا العجز على

فرض هبوط سعر ضريبة الدخل إلى خمس بنسات (كما تقرر عام ١٨٥٣) . وأعدت الميزانية على مبدأ أن ضريبة الدخل ليست من الإيرادات الدائمة وأنها ستلغى فى سنة ١٨٦٠ . وهكذا استطاع دزرائيلى أن ينال تأييد غلادستون . ولا شك أن الميزانية التى قدمها دزرائيلى سنة ١٨٥٢ كانت أسلم من حيث المبادىء التى تضمنتها ، كما أن إلغاء ضريبة الدخل سنة ١٨٦٠ لم يكن منتظرا نتيجة لتزايد نفقات الدولة المطرد . وانتهز الوزير فرصة استمرار الأعمال الحربية فى الصين فأجل دفع قسط دين الحرب ، وبذا هبط العجز إلى نصف مليون جنيه ، وهذا عالجه برفع الضريبة على المشروبات الروحية فى أرلنده ، ثم عمد إلى فرض رسم تمغة قدره بنس واحد على الشيكات حتى يتسنى له الحصول على فائض قليل ، وهذا العمل ضمن للدولة فى المستقبل إيرادا يتزايد باطراد ، وقد نجحت الميزانية نجاحا كبيرا وأيدها المجلس .

غير أن مركز الحكومة تحرج بسبب المشروع الذى صاغه إلنبروه Ellenborough رئيس لجنة التجارة بخصوص تنظيم الحكم فى الهند . ويقضى المشروع بتأليف مجلس من ١٨ عضوا يعين التاج نصفهم ممن له مؤهلات ودراية خاصة فى المسائل الهندية ، أما النصف الآخر فينتخب أربعة منهم بواسطة لجنة ممن سبقت لهم الخدمة فى الهند أو من لهم مصالح مالية بها ، وبعد ذلك يختار

الخمسة الباقون بواسطة الناخبين البرلمانيين فى مدن لندن ومنشستر وليفربول وجلاسكو وبلفاست. وهذا النظام المقترح يمتاز بطابع التعقيد. وبرغم أن المجلس أجاز القراءة الأولى للمشروع من باب المجاملة إلا أن الروح كانت معادية له إلى حد كبير واستنكره حتى الأحرار المستقلون برغم موقفهم الودى إزاء الوزارة. وكان بالمرستون يبذل غاية جهده حتى يحمل المجلس على رفض المشروع ثم يستغل الفرصة لاخراج وزارة المحافظين. وقد ترامت أنباء مساعيه من مصادر موثوق بها إلى دزرائيلى الذى أسر الأمر فى خطاب خاص إلى لورد درى (٢ أبريل ١٨٥٨). وفى هذا الوقت ارتكب إلنبروه خطأ كبيراً أعطى المعارضة وخصوم الوزارة سلاحاً قوياً، ذلك أنه ظهر فى انجلترا منشور أصدره كانننج حاكم الهند العام إلى أهالى أود يعد بمكافأة الذين ظلوا على ولائهم إبان الثورة الهندية ويتوعد الذين اشتركوا فيها، بما يعد تصميما من قبل السلطات على مصادرة أملاكهم. فما كان من إلنبروه إلا أن بعث بمذكرة شديدة اللهجة إلى كانننج فيها توبيخ شديد لعمله هذا، وذكرته أن غيره من المنتصرين يكتفون بمعاقبة نفر قليل من الثائرين، ولكنهم يظهرون روح التسامح نحو الأغلبية ويعفون عنها، أما هو فقد عكس الآية، وخالف التقاليد والسوابق. وختمت المذكرة بالعبارات الآتية «إن رغبتنا تنحصر فى أن نرى سلطان انجلترا فى الهند قائماً على

أساس رضى الأهلين ، ولا يمكن وجود الرضاء مع هذه المصادرة الإجماعية » . ولم تعرض المذكرة على مجلس الوزراء أو الملكة للموافقة عليها ، وإن كان صاحبها قد عرضها على البارزين من زملائه ومنهم دزرائيلى فأقروها ، بسبب الروح التى أملتها ، غير أن موافقتهم لم تكن ذات صبغة رسمية . وكان من المستطاع أن يظل أمر المذكرة خافياً لولا أن إلنبروه أرسل نسخاً منها إلى جرانفيل زعيم المعارضة وإلى بريت كبير الراديكاليين . أثار الحادث الاستياء ، لا بسبب المعنى الذى تنطوى علية هذه الرسالة ، بل بل لأنه لا يجوز أن يصدر مثل هذا اللوم من وزير مسئول إلى مرظف من كبار موظفى التاج . سخط الرأى العام فى داخل المجلس وخارجه ، ولكن دزرائيلى صرح أن الحكومة تستنكر منشور الحاكم العام . وهذا وفاء منه لزميل له . غير أن خصوم المعارضة قدموا فى المجلسين اقتراحاً بتوجيه اللوم إلى الوزارة . قدم إلنبروه استقالته إنقاذاً للموقف ومراعاة لصالح زملائه وحزبه . ولكن المعارضة أبت أن تكتفى بهذا ، وأن تسمو على الاعتبارات الشخصية ، وأصرت على توجيه اللوم . وقد أنقذت الحكومة فى مجلس اللوردات بأغلبية ٩ أصوات . أما فى مجلس العموم فكانت المعركة حاميـــة الوطيس وغاية فى العنف ، واستخدم دزرائيلى بوسائله المختلفة أقصى مواهبه السياسية والبرلمانية . وإذ وضح أن التيار ضد الوزارة قوى قادر على

ا كتساحها حدث التفكير فى حل المجلس والرجوع إلى جمهور الناخبين ، فأبت الملكة استخدام هذا التهديد ، ولكنها استشارت صديقها اللورد أبردين الذى قال إنه ، وإن عارض فى مبدأ التهديد بالحل ، إلا أن قبولها نصيحة رئيس وزرائها بحل المجلس عمل دستورى لا غبار عليه . وبناء على هذا أفهمت جلالتها اللورد درى أنها لن ترفض طلبه إذا تقدم به ، ولكن رئيس الحكومة لم يلجأ إلى هذا إذ تحول التيار وتحطمت المعارضة ، ذلك أن لورد أبردين وجراهام قررا تأييد الوزارة ، وأعلن بريت أنه يعد الإصرار على الاقتراح مسألة حزبية شخصية ، وصرح جراهام أنه لا يشترك فى معركة حزبية وخاصة بعد أن اعتبر استقالة إلنبروه ترضية لكاننج ، وفى الوقت ذاته علم أن حاكم أود قد سبق له أن احتج على المشروع ونصح كاننج بتعديله . إزاء هذه الظروف ، مضافا إليها الخوف من حل المجلس ، قرر كاردول (Cardwell) وبالمرستون سحب اقتراحيهما ، وبذلك أحرزت الحكومة ودزرائيلى فى الواقع فوزاً مبيناً فى هذه المعركة .

تعين على الوزارة اختيار خلف للعضو المستقيل ، وهنا أرسل دزرائيلى خطاباً إلى غلادستون محاولا حمله على قبول المنصب والتعاون مع الوزارة ، ولكن الأخير أبى العرض . فتقرر نقل ستانلى من منصبه ليحل محل إلنبروه . وعلى أثر ذلك قدم مشروعا جديداً أقره البرلمان ، وبهذا وفقت حكومة المحافظين إلى وضع

نظام لحكم الهند ظل قائماً وإن عدل فى بعض تفاصيله . وينص القانون الصادر على انتقال سلطة شركة الهند الشرقية ومجلس الرقابة إلى وزير الهند ، وأن يؤلف مجلس من ١٥ عضواً ، يعين الوزير ٨ منهم والباقون يختارهم مديرو الشركة ، على أن يكون أغلب الأعضاء ممن أقاموا عشر سنوات فى الهند [١] . وقد أشار دزرائيلى بأن تصدر الملكة إعلاناً إلى أهل الهند ، وقد فعلت الحكومة ذلك وفيه وعدت الملكة باحترام العقائد والأديان ، وأن ينال كل فرد حماية القانون . كما جاء فى الإعلان وعد بالعفو العام ، إلا من اتهم بارتكاب جرائم القتل . ولا شك أن هذا يتمشى مع ما دعا إليه دزرائيلى على الدوام من اتباع سياسة التسامح والعطف إزاء أهل الهند .

كان دزرائيلى لا يعد قانون إصلاح سنة ١٨٣٢ نهائياً أو غاية فى ذاته ، كما لم يعتبر الإصلاح النيابى وقفاً على الهويج ، بل كان يصرح بالحاجة إلى إعادة تعديل نظام الانتخاب لمجلس العموم بحيث يزاد تمثيل الطبقة الصناعية . بهذا صرح فى مؤلفاته وخطبه ، وبهذا نادت الصحيفة التى أنشأها وذلك منذ سنة ١٨٥٣ وبينت أن دربى هو الزعيم الحقيقى الذى يقع عليه واجب احداث الإصلاح . وقد نجح دزرائيلى فى أن يجعل فريقا من

---

(١) عدل النظام فى المستقبل فصار عدد أعضاء المجلس إثنى عشر فقط يختارهم جميعا الوزير .

المحافظين يميل إلى وجهة نظره من حيث ضرورة الإصلاح . وعلى هذا الأساس قدمت الوزارة مشروعاً لهذا الغرض، برغم أن بعض رجال الحزب كانوا معارضين فى الأمر وعدوه خروجاً على مبادىء المحافظين . وهذه هى الروح التى نصب دزرائيلى نفسه منذ تولى زعامة الحزب إلى هدمها والقضاء عليها . ويستند المشروع المقدم إلى أنه من الخطأ جعل التمثيل على أساس عددى ، بل إن الواجب يقضى بأن يمثل المجلس كل المصالح المختلفة فى البلاد ، وبهذا يجب توزيع التمثيل على البلاد كلها بحيث يكون المجلس صورة معبرة عن روح البلاد ومدى التطور الذى حدث فيها منذ عام ١٨٣٢ . كانت مقابلة المعارضة للمشروع عدائية ، وبدأت المناقشة فى القراءة الثانية فى ٢١ مارس واستمرت ما يقرب من أسبوعين . خطب بريت فقال إن المشروع بالشكل الذى هو عليه ليس النوع الذى يراه دزرائيلى أصلح للبلاد ، وكان خطاب رسل كله عداء ، وتتابع الكثيرون . رد دزرائيلى على الناقدين ، فقال إن المشروع يقوم على مبادىء ثلاث : زيادة عدد الناخبين مع تنويع طبقاتهم ، رفع نسبة التمثيل للجماعات التى نمت منذ سنة ١٨٣٢ ، ثم الإبقاء على نظام المدن ذوات الإمتيازات القديمة كالوسيلة الوحيدة لتمثيل مختلف المصالح فى البلاد . وقد حمل حملة صادقة على المعارضة التى تغير موقفها . أما عن لورد رسل فقد هاجمه بعنف شديد « أثق أن سيدى اللورد لن يسيئه

قولى إن هناك فى خلقه صفة ، هى عقبة فى سبيل حظه وعمله أكثر مما هى ميزة تساعده . هذه الصفة هى عدم الاستقرار الذى لا يتحمل الإبطاء والصبر اللازمين فى ظل حكومتنا الدستورية لإدارة المسائل العامة . ففى اللحظة التى لا يكون فيها اللورد النبيل فى الحكم يبدو لى أنه يعيش فى جو من الائتلافات والارتباطات والانقلابات والاقتراحات التى تنم عن المكر .. ففى سنة ١٨٣٥ قلب حكومة سير روبرت بيل بحجة لاتستند إلى الواقع العملى ، وفى سنة ١٨٥٢ هدم حكومة لورد درب عن طريق ائتلاف لا هدف له ، وفى سنة ١٨٥٥ قضى على حكومة لورد أبردين بحركة انقلابية شخصية ، وكذلك حطم حكومة النائب المحترم عن تيفرتون بواسطة مناورة برلمانية وذلك فى سنة ١٨٥٨ . والآن أرجو من السيد النبيل أن يلقى ببصره لحظة إلى الوراء ، إلى عام ١٨٥٢ . لقد كان جالساً إذ ذاك أمامى على رأس جمع قوى ، ثم أطلق السهم القاتل الذى حطم حكومتنا ، ونجح فى ذلك .. ولكن ألم يهدم شيئاً آخر ؟ ألم يهدم كذلك مركز سياسى عظيم ؟ ألم يقرب من هدم ذلك الحزب التاريخى العظيم الذى كان يوماً ما زعيمه الفخور المبجل ؟ » . وبرغم هذا فقد أخفق المشروع المقدم سنة ١٨٥٩ بسبب مناورات الهويج . وهكذا أضاع أولئك القوم فرصة إصدار قانون معتدل فى روحه ، يتمشى مع العصر ويطابق الظروف القائمة .

قررت الحكومة حل المجلس وأعلنت قرارها للمجلسين فى الرابع من أبريل . أجريت الإنتخابات ولكن سوء الطالع لازم المحافظين برغم أن الظروف كانت مواتية لنجاحهم : فقد أخمدت ثورة الهند ، وتحسنت الأحوال فى الصين ، وكانت البلاد موافقة على سياسة الحياد التى انتهجتها الوزارة إزاء الأحوال الأوروبية ، والنزاع بين النمسا من جهة ونابليون الثالث ومملكة بيدمنت من جهة أخرى ، وكذلك كانت المعارضة منقسمة على بعضها ولم يعد بالمرستون أو رسل ينعمان بما كان لهما من تقدير كبير فى نظر الرأى العام . وبينما كانت البلاد فى المعركة الانتخابية أرسل دزرائيلى خطابا إلى بالمرستون ساعياً إلى ضمه وجماعته إلى لورد درب وبذا يضمن بقاء الوزارة فى الحكم . ولكن بالمرستون اعتذر عن ذلك ، ولعله كان واثقاً أن دوره سيأتى بعد الانتخابات . وكذلك أخفقت جهود دزرائيلى فى أن يضم عناصر أخرى من المعارضة إلى المحافظين ، وما ذلك إلا لأن المعارضين كانوا يحاربون خصما واحداً ، كما كان الهويج يأملون العودة إلى الحكم .

لم يحرز المحافظون الأغلبية ولم يمض وقت طويل حتى هزمت حكومتهم فى المجلس فقدمت استقالتها فى الحال ، وانتقل دزرائيلى من جديد إلى صفوف المعارضة . وفى نهاية هذه السنة فجع دزرائيلى فى موت أخته سارة التى كانت له — كما قال — « أول صديق وأثبتهم على الإخلاص » .

الفصل العاشر

فوز مزدوج

(قانون ١٨٦٧ — رآسة الوزارة)

مات لورد بالمرستون فى عام ١٨٦٥ . ويصح اعتبار هـذا التاريخ بداية عصر جديد فى تاريخ الإصلاح النيابى فى انجلترا خلال القرن التاسع عشر . لقدجعل قانون ١٨٣٢ الشعب صاحب السيادة العليـا ، وصيغ بحيث أمكن تمثيل نحو نصف الطبقة الوسطى . وماكان من المنظور أن يقف الأمر عند هـذا الحد زمنا طويلا بعد أن انتشرت وسائل المواصلات الجديدة وربطت البلاد بعضهابعض ، وبعد أن ازدهرت صناعة انجلترا ، وزادعدد أفراد الطبقة العاملة واشـتد شعورهم بأهميتهم ، وبعد أن أخذت الآراء الاشتراكية تجتذب الأنصار . لهـذا أخذت البلاد تسير فى طريق الديموقراطية ، ومما ساعد على انتشار هذه الروح غلادستون ودزرائيلى . لقد ظل الأحرار حتى ذلك التاريخ تعلق بهم عقلية الهويج القديمة . وبرغم وجود فئة منهم طابعها التقدم والسير إلى الأمام ، فقد كانت الأغلبية لا تميل إلى الديموقراطية

الصادقة ، وترى أن الدستور قد وصل درجة من النضوج بحيث لا يجوز تغييره ، وعلى رأس هؤلاء كان بالمرستون نفسه . أما غلادستون فيمثل روح التقدم ، وقد أثار ضجة فى أوساط الأحزاب لما صرح فى عام ١٨٦٤ بأن كل فرد له الحق أن يدخل فى دائرة الدستور ما دام لا يعد خطراً سياسياً ، أو يحول بينه وبين هذا الحق نقص ذاتى . فلما مات بالمرستون انفسح المجال أمام غلادستون ومن يرى رأيه من الأحرار . أما حزب المحافظين فقد تولى دزرائيلى تهذيبهم وتعليمهم خلال العشرين سنة السابقة ، إذ رأى أن الثورة الصناعية خلقت شعباً جديداً من الخطر إبعاده عن دائرة النظام البرلمانى ، وأدرك أن انجلترا التى أصبحت أعظم دولة صناعية فى العالم لا يمكن أن تظل خاضعة لحكم « الأرستقراطية الزراعية » . وممن له فضل العمل على انتشار الروح الديموقراطية الجديدة الفيلسوف چون ستيوارت مِلْ الذى كان من أنصار الحرية السياسية وحرية الفكر والمناقشة .

وبعد ذلك التاريخ وقف حزبا المحافظين والأحرار وجهاً لوجه ، واختلفت وجهات نظرهما إزاء المسائل الداخلية والسياسة الخارجية . حقيقة كان الحزبان يريان ضرورة الإصلاح النيابى ، ولكن الأحرار أخذوا يتجهون تدريجاً صوب الراديكالية ، ويطالبون بنقل السلطة من الطبقة الوسطى إلى الجماهير ، وذلك عن طريق توسيع حق الإنتخاب إلى أقصى حد ممكن ، ويرون

ضرورة وضع نظام من التعليم القومى حتى يصبح الناخب أقدر على ممارسة حقوقه السياسية ، كما يجب العمل على حمايته من المؤثرات بإدخال نظام التصويت السرى . أما المحافظون فتقوم سياستهم على الحكم لصالح الشعب وإن لم يكن ذلك بواسطة الشعب ، ويرون أن يقوم حزبهم على مزيج من الإصلاح الإجتماعى والوطنية . ومن حيث المسائل الخارجية اعتقد الأحرار أن السلام هو أهم ما تحتاجه البلاد ، ولكن دزرائيلى كان يرى ضرورة اتباع سياسة خارجية ترفع سمعة البلاد وترمى إلى تقوية أواصر الإمبراطورية . وقدر كذلك للسياسة البريطانية أن تشهد فى العشرين سنة التالية لموت بالمرستون معركة رائعة وعظيمة بين زعيمين من أكبر رجال القرن التاسع عشر ، وهما غلادستون ودزرائيلى . فالأول يمثل طابع الجد وروح التدين ، ويؤمن بالحكومة بواسطة الشعب ، ويصرح باستعداده أن يقبل كافة الإصلاحات التى يرغب فيها الشعب وإن أدت إلى هدم أقدم التقاليد . أما دزرائيلى فيمتاز بالذكاء والنبوغ ومظهر من الخفة يخفى تحته إيماناً عميقاً ، وهو يؤمن بالحكومة التى تعمل لصالح الشعب ، ويعلن استعداده لقبول الإصلاحات التى تحترم أنظمة قديمة لا غنى عنها[١] .

---

(١) André Maurois : A History of England, pp. 455—456.

ألف لورد رسل الوزارة وكان غلادستون الروح المحركة فيها ، ولذا قدم فى مارس سنة ١٨٦٦ مشروعاً لزيادة تمثيل الطبقة العاملة ، فعارض المحافظون فى الأمر ، كما أن نفراً من الأحرار قاوموه ، إذ لا زالت تسيطر عليهم العقلية القديمة التى تمثل الطبقة الوسطى ، ووصل الحال إلى أن صرح أحدهم (Robert Lowe) بعدم استعداد العمال الأخلاقى والعقلى . هنا تحرك الأخيرون ، وانتقلت المسألة إلى الرأى العام ، واضطربت البلاد ، وتزعم چون بريت حركة تطالب بمشروع أوسع مدى مما تقدمت به الحكومة . وإذ رفض المجلس مشروع غلادستون قدم رسل استقالته (يونيه ١٨٦٦) .

عهدت الملكة إلى لورد درپى بتأليف حكومة جديدة ، ففعل برغم عدم استناده إلى أغلبية فى المجلس . كان دزرائيلى قد شاهد النذر ، وأدرك أن موقفاً جديداً قد نشأ يستطيع فيه زعيم محافظ يؤمن بالطبقة العاملة أن ينقذ البلاد ، وأن يصبح رجل الساعة ، وأن يرفع سمعة الحزب ، وأن يقضى على الاعتقاد السائد أن الإصلاح النيابى احتكار للأحرار . والواقع ، أن حركة المطالبة بالإصلاح انتشرت انتشاراً واسعاً ، واشترك فيها رجال الطبقة الوسطى إلى العمال ، الأولون ليستكملوا تمثيلهم ، والآخرون لأنهم لا يكادون يمثلون فى المجلس . لهذا تشجع دزرائيلى وحمل الوزارة على أن تعد بأن تولى مسألة الإصلاح عنايتها القصوى .

أخذت الوزارة تعد المشروع الذى تتقدم به إلى المجلس. وهنا بدأ الخلاف فى صفوف الحكومة وأنصارها وهدد جنرال بيل بالاستقالة. ولكن دزرائيلى الذى أراد الإبقاء على وحدة الوزارة عدل عن فكرته الأصلية، وضيق حدود المقترحات إرضاء لزميله الذى أعلن فى اللحظة الأخيرة معارضته فى المبدأ ذاته وأصر على الاستقالة. أبلغ الخبر للملكة التى أسفت لحرمان الوزارة من خدمات ذلك الرجل الكفء، ولكنها وعدت دزرائيلى بتأييدها الكامل لأنها تعتقد أن مسألة الإصلاح البرلمانى أعظم أهمية من بيل. وهنا رأى دزرائيلى أن خير سبيل ينتهج هو وضع مشروع أوسع نطاقاً من حيث تمثيل المدن، وهكذا كان رأيه فى بادىء الأمر. عرض المشروع الجديد على الوزارة فأقرته بالإجماع على ما يبدو، وتقرر أن يقوم دزرائيلى بتوضيحه للمجلس فى جلسة الاثنين ١٧ مارس. وفى الساعة التاسعة إلا ربعا من صباح ذلك اليوم وصلته الإشارة التالية من دربى «مرفق بهذا ما تسلمته الآن وفيه الدمار التام. فما الذى نستطيع عمله؟». أما الذى أشار اليه رئيس الوزراء فخطاب من كرانبورن Cranborne يهدد فيه بالاستقالة، ويؤيده فى التهديد زميل آخر هو كارنارفون. وقد علق دزرائيلى على ذلك فوصفه بأنه «طعنة من الخلف» و«خيانة». وهذا حقيق لأن الوزيرين أقرا المشروع من قبل، فمن العجب أن يعترضا فى اللحظة الأخيرة

الحاسمة على بعض تفصيلاته . لقد كان الموقف حرجا فالساعة بلغت الثانيـة ، وبعد نصف ساعة سيتحدث دربى إلى الحزب ، وفى الرابعة والنصف سيتقدم دزرائيلى إلى البرلمان ، حتى قيل إنه ليس أمام الوزارة سوى عشر دقائق . وحتى يمكن الاحتفاظ بتماسك الوزارة تقرر فى الحال التقدم بالمشروع الأول الذى كان قد أعد إرضاء لبيـل ، وهذا ما عرف فى التاريخ باسم « مشروع الدقائق العشر » . ولمـــا انتهى دزرائيلى من كلامه تملكت المجلس روح الغضب الشديد . وهنا أدرك ألا مندوحة من اتخاذ الطريق الأقوم والتقـدم بالمشروع الآخر ولو أدى الأمر إلى انفصال زميليه . لقد قيل إن خير الأعمال أجرؤها ، وهذا ما اعتزم دزرائيلى عمله .

وفى ١٨ مارس قدم المشروع وخطب دزرائيـلى فأبان أن الغرض منه أن يقوم المجلس على أساس شعبي واسع ، وأوضح أنه يؤدى إلى زيادة عدد النـاخبين بنحو مائتى ألف . فنهض غلادستون يحمل على المشروع الملىء بالقيود . وقد أراد الرجل انتهاز الفرصة ليلقى بالمشروع خارج المجلس ويقصى المحافظين عن الحكم ، ولـكن بعض الأحرار المستقلين أبوا مسايرة هذه الخطة وآثروا مؤازرة الحكومة وبعد أن تتابع الخطباء ما بين محبذ وناقد ، وقف دزرائيلى يعلن أن المشروع يرتكز على أساس شعبي رشـيد ، ثم وجه الكلام إلى غلادستون قائلا « إن السيد

المحترم ينهض فيخاطبني بلهجة أراني مضطراً أن أعدها غير عادية في هذا المجلس ». وتناول أقواله مبينا ما فيها من تناقض لأن هدفه الحقيقي إسقاط الحكومة. وبعد ذلك أوضح كيف أن مشروع الوزارة يخالف ما تقدمت به سابقتها، من حيث استناده إلى مبدأ معين وليس الغرض منه فقط منح حق الانتخاب لعدد معين من أفراد الشعب. ثم ختم كلامه موجهاً الحديث إلى المجلس « بالإصالة عن نفسي وبالنيابة عن إخواني أقرر أنه ليست لنا سوى رغبة واحدة هي الوصول إلى تسوية مشكلة الإصلاح النيابي بتعاون المجلس معنا. أقول اعملوا معنا بإخلاص وصراحة تجدوننا نعاملكم بنفس الروح. أقروا المشروع وبعد ذلك أبدلوا الوزارة إن شئتم ».

أحدث الخطاب أثراً طيبا في جو المجلس، وكان من أعظم ما ألقاه من قبل حتى قيل إنه قرر مصير المشروع. وقد امتدحه زعماء الأحرار من أمثال رسل وهاستنجر، أما زملاء دزرائيلي فقد أجمعوا على إبداء إعجابهم الشديد. وكتب ستانلي — الذي لم يكن متحمسا — يقول « كان خطاب ليلة أمس موضع سرور جميع أصدقائنا، وأظن أنه أعظم ما ألقيت ». وإزاء هذا جمع غلادستون أنصاره وقرر المطالبة بتعديل بعض التفاصيل، ولكن الأحرار المستقلين أدركوا الخطر إذ يؤدي إلى هدم المشروع فأبوا تأييد سياسة المعارضة الرسمية. وهنا قدم

غلادستون الاقتراح ، وانحاز اليه بريت ، واعتزم كرنبورن وزملاؤه التصويت إلى جانبه . اعترض دزرائيلى مبينا أن ماتقدم به خصمه ليست تعديلات وإنما هى اقتراحات معارضة ترمى إلى هدم المشروع . فقال غلادستون إنه عاجز عن أن يفهم كيف أن الوزير يبدى استعداده للإئتناس برأى المجلس ومع ذلك يرفض قبول التعديلات . اشتدت المعركة إذ تقرر أخذ الأصوات ، وظل غلادستون يؤمن بنتيجة تؤيده ، ولكن خابت ظنونه إذ أقر المجلس القراءة الثانية بأغلبية ٢١ صوتا فكان ذلك صدمة عنيفة له . أما المحافظون فكان فرحهم بهذا الفوز بالغا ، وهنأوا دزرائيلى فى حماس شديد . وكتب مونتاجو كورى « إن اسمك على لسان كل عامل . . . لقد أحرز مستر — نصراً عظيما » .

انفض البرلمان بسبب عطلة عيد الفصح ، ولم تشأ المعارضة أن تسكت عن هزيمتها ، بل لجأت إلى عقد الإجتماعات العامة ، ونشرت الدعاية بأن المشروع ينكر حقوق الطبقة العاملة ، وهذا لا يتفق مع الحقيقة مطلقاً . ولما عاد البرلمان إلى الانعقاد نشطت اللجنة فى دراسة المشروع وإعداد تقريرها ، ولكن غلادستون لم يحاول أن يقف موقفاً بارزاً ، وقدم غيره عدة تعديلات أخذت اللجنة ببعضها ونقحت البعض الآخر أو رفضته . وفى ١٥ يوليه مرت القراءة الثالثة ، وأرسل المشروع إلى مجلس اللوردات ، وأصبح قانونا فى ١٥ أغسطس سنة ١٨٦٧ . وهكذا تمت معركة

الإصلاح النيابى ، وحدث تعديل خطير ، لاعلى أيدى الأحرار وإنما بفضل المحافظين . وأهم ما فى القانون الصادر أخذ ٥٨ مقعداً من البلدان الصغيرة لتوزيعها على المراكز الكبيرة ، ومنح حق التصويت فى المدن لمن يدفع ضريبة الفقراء أو يسكن بيتاً إيجاره لا يقل عن عشرة جنيهات ، وفى الأقاليم لمن يقطن منزلا إيجاره السنوى لا يقل عن إثنى عشر جنيها .

وفى الوليمة الاعتيادية التى تقام للوزراء فى Mansion House قبيل ختام الدورة خطب دزرائيلى مبيناً مدى العمل العظيم الذى تم وأهميته ، ونسب ذلك إلى ما كرس حياته له ، ألا وهو إعادة حزب التورى إلى مكانه اللائق بهم فى حكومة البلاد . ومما جاء فى الخطاب « حينما تحاولون تسوية مسألة ذات شأن فعلى الساسة أن يراعو اعتبارين . فأولا يجب أن يكون هذا المبدأ متفقا مع عادات الشعب الذى تحاولون عمل التشريع له » ، وقال « فى البلاد التى تسير فى طريق التقدم التغيير أمر دائم ، والمشكلة الكبرى ليست مقاومة التغيير الذى لا مفر منه ، ولكن هى هل يتم التغيير مع احترام عادات الشعب وقوانينه وتقاليده أم تبعا لمبادىء معنوية ومذاهب عامة » . ثم أيد السبيل الأول ، وهكذا نراه ينظر ببصره إلى المستقبل ، وما قد يتمخض عنه من تغيير ، وينصح بالطريق الأقوم فى رأيه .

فى الحقيقة ، كان قانون إصلاح سنة ١٨٦٧ فوزاً برلمانيا

لدزرائيلى نفسه الذى لم يدخر وسعا فى بذل أقصى مجهود لديه فى الوزارة والحزب والبرلمان وخارجه حتى يمر المشروع . وقد قيل إنه تكلم أكثر من ثلاثمائة مرة بصدده ، وكان على أتم الاستعداد بالرأى والحجة ، ولم يكن ينكص على عقبيه فى قبول أى اقتراح بتعديل يراه مؤدياً إلى تحقيق الهدف الذى رمى إليه . وهو نصر حزبى إذ استطاع أن يجرف المحافظين معه فى تيار الديموقراطية فأيدوه خلاف ما فعلوا فى سنة ١٨٣٢ . وبهذا مهدوا السبيل لتأسيس حزبهم من جديد على أساس قومى بعد أن أثبت مسلكهم أنهم لا ينظرون إلى الشعب وتوسيع حقوقه بعين الشك وفى الوقت نفسه كان هذا العمل ضربة للأحرار الذين لازمتهم الدعاية قبلا بأنهم وحدهم أنصار الإصلاح . أما الشعب فلا شك أنه اعترف بجميل دزرائيلى ، فقد زاد عدد الناخبين مليونا بعد أن خرج المشروع للقراءة الثالثة وقد تخلص من القيود والضمانات المحيطة به . وهكذا صارت الطبقة الوسطى كلها ممثلة وأصبح كذلك العمال الصناعيون لهم حق الانتخاب ، وهذه خطوة لها أهميتها الكبرى إذ لم يعد بدون تمثيل سوى طبقة العمال الزراعيين . وقد أحسنت مجلة Punch وصف العمل الذى قام به زعيم المحافظين فرسمته على صورة أبى الهول يجر عربته إلى معبد الإصلاح نفر من الساسة البارزين من جميع الأحزاب ، سواء عن رغبة ذاتية أو خوفا من سوط دزرائيلى .

أما الرسم المذكور فعنوانه « دزرائيلى فى موكب النصر »، وقد صدقت الوصف والتعبير، ولماذا ؟ ألم تحاول الحكومات مدى سنوات طوال أن تحل المشكلة فأخفقت ؟ ونجح هو فى برلمان ليست له فيه الأغلبية . وثمت أمر آخر : لقد كان المشروع معركة بين أعظم شخصيتين برلمانيتين، وخرج منها دزرائيلى منتصرا على خصمه غلادستون . وأخيرا لقد نجح دزرائيلى فيما أخفق فيه روبرت بيل من قبل، لأن بيل حطم الحزب فى سبيل حرية التجارة بخيانة سياسة المحافظين كما وصفه خصومه، أما دزرائيلى فقام بنفس العملية بصدد الإصلاح النيابى دون أن يهدم وحدة الحزب . ومن يدرى لعل السبب أنه نجح فى تعليم المحافظين واجبهم الجديد أو لعله لم يجد (دزرائيلا) آخر يقف أمامه كما فعل هو من قبل مع زعيمه بيل .

كانت الوزارة — أو بالأحرى دزرائيلى — فى شغل بإعداد مشروعات وتشريعات أخرى تعدها للدورة الجديدة ولكن داء النقرس اشتد على دربى ولم يستطع الاشتراك بنفسه فى العمل حين استأنف البرلمان الانعقاد فى ١٣ فبراير . ولم يلبث رئيس الوزراء أن أبلغ صديقه أنه يفكر فى اعتزال الحكم بسبب سوء حالته الصحية . ولم يكن أحد يساوره الريب فيمن سيخلفه فى رياسة الحكومة، وفعلا كتب دربى إلى الملكة يقترح دزرائيلى خلفا له . وأخيرا أرسلت فكتوريا فى طلبه وعهدت

إليه بمنصب كبير وزراء التاج ، فقبل المهمة وكتب إلى جلالتها شاكرا عطفها وثقتها ، واستحق الرد الملكى السامى نقتطف منه ما يأتى « تشكر الملكة مستر دزرائيلى على خطابه الرقيق الذى تسلمته اليوم ، وتستطيع أن تؤكد له تأييدها القلبى فى المهمة الشاقة التى أخذها على عاتقه . وأنها للحظة فخر له أن يشعر بأن مواهبه وخدماته الناجحة فى سبيل مليكته وبلاده قد أكسبته المركز العظيم الذى يشغله الآن . لقد وجدت الملكة دائما فى مستر دزرائيلى أشد الحماس فى خدمتها والاستعداد لمواجهة رغباتها . . . » لقد كان سرور دزرائيلى يفوق حد الوصف ، وعبر عنه بأبلغ العبارات للكثيرين . هكذا نال الرجل ثمار ذكائه وشجاعته وصبره وإخلاصه لعمله وتفانيه فى أداء واجبه . لقد دفع القدر ثمن العبقرية مرتين دفعة واحدة تقريبا .

أبلغ نبأ التغيير إلى المجلس فى ٢٥ فبراير ، وتقدمت الوزارة فى شكلها الجديد إليه فى ٥ مارس (١٨٦٨) وفى العاشر من الشهر بدأت المناقشة بصدد مسألة أرلنده[١] وهنا انتهز غلادستون

---

(١) كانت المسألة الأرلندية من الأمور الشائكة أمام انجلترا . وتنحصر مطالب الأرلنديين فى إلغاء الضرائب التى يدفعها أهل البلاد من الكاثوليك للكنيسة البروتستانتية ، والقضاء على نظام الأراضى الضار بالمزارعين ، ومنح البلاد الحكم الذاتى . ولما أغفلت انجلترا هذه المطالب تطورت الحركة فصارت تطالب بفصل أرلنده عن انجلترا وإنشاء جمهورية بها ، وقد اشتدت =

الفرصة فطالب بإلغاء الكنيسة الأرلندية البروتستانتية التى لا تمثل سوى أقلية ضئيلة من الشعب . لقد عرف رئيس الأحرار كيف يختار السلاح . والواقع كان مركز دزرائيلى فى غاية الحرج : فهو قد صرح من سنوات أن هذه الكنيسة الغريبة من أغلبية أهل أرلنده هى من مصادر الشكوى العادلة التى ضج بها الأرلنديون ولكنه فى الوقت نفسه زعيم الحزب المناصر للكنيسة الإنجليزية والمعارض فى إلغاء شقيقتها فى أرلنـــده . انحاز الأحرار والراديكاليون والنواب الأرلنديون إلى بعض وكونوا جبهة واحدة تؤيد ما طالب به غلادستون . وقد نجح الأخير فى نيل موافقة المجلس على اقتراح بهذا الصدد .

أجريت الإنتخابات فى نوفمبر ، وسعى دزرائيلى جاهداً فى نيل تأييد الكنيسة الإنجليزية وزعمائها ، غير أن غلادستون وزعماء المعارضة بذلوا جهوداً جبارة ، ولذا أخفقت الوزارة فى نيل الأغلبية . وكان فى استطاعتها أن تتقدم إلى البرلمان وتنتظر مصيرها بأن تهزم فى مسألة تعيين رئيس المجلس أو تعديل خطاب العرش . وكانت السوابق تبرز ذلك كما فعل ملبورن فى سنة ١٨٤١ ،

= ساعد جماعة Fenians ذات الآراء الجمهورية ، وحدثت اضطرابات عنيفة سنة ١٨٦٥ ولجأت الحكومة البريطانية إلى الشدة وإعلان الأحكام العرفية وغير ذلك .

ولكن دزرائيلى كان قد انتقد هذا التصرف . والآن لقد خذله المجلس السابق فلجأ إلى الرأى العام الذى أصدر حكمه عليه . وإذ أصبح من العبث البقاء فى الحكم إلى حين افتتاح الدورة البرلمانية ، بادر الوزراء بتقديم استقالتهم ، وأوردوا فيها الدافع الذى حملهم على سلوك هذا السبيل ، وهو أنه مما يتفق (والخطة التى التزموها) . ومما يؤدى (إلى تسهيل الأعمال العامة فى ذلك الوقت) ، ولأن هذا خير (من الانتظار حتى يجتمع برلمان يشعرون أنهم لا يعتمدون فيه إلا على أقلية) . وبهذا الخطاب ، والأسباب التى ذكرت فيه ، وضعت وزارة دزرائيلى الأولى سابقة نيابية أو تقليداً دستورياً[1] .

---

(١) اتبعت هذه القاعدة فيما بعد فى الأحوال المماثلة ، وطبقها غلادستون (بعد انتخابات عامى ١٨٧٤ ، ١٨٨٦) ، وبيكونزفيلد (بعد انتخابات ١٨٨٠) ومستر رمزى مكدونالد (على أثر الانتخابات العامة سنة ١٩٣٤) . وخالف هذا التقليد سالسبرى فى عامى ١٨٨٥ ، ١٨٩٢ ، وبلدوين فى سنة ١٩٢٣ ، بحجة أنه برغم ما تدل عليه نتيجة الانتخابات من وجود أغلبية ضد الوزارة ، إلا أنها أغلبية يعوزها عنصر التجانس . ولكن يلاحظ فى هذه الحالات لم تبق الوزارة فى الحكم بعد خطاب العرش .

Monypenny and Buckle : Life of Disraeli, vol. II, p. 436.

الفصل الحادي عشر

فراغ

بعد أن ظهرت نتيجة الانتخابات توجه دزرائيلى لمقابلة الملكة ، وأثناء الحديث التمس من جلالتها الإنعام على زوجته ، فلقى عطفاً وتشجيعاً ، مما حمله أن يكتب خطاباً بهذا الصدد ينم عن مبلغ ما يكنه من الحب والتقدير لشريكة حياته ، « التى يعزو إليهـــا كل شيء » . لم تلبث مسز دزرائيلى أن أصبحت لادى بيكنزفيلد ، وأرسل زوجها إلى مولاته السامية يقول « إن مستر دزرائيلى يعرض عنـد أقدام جلالتك عميق شكره على عطف جلالتك الذى يجل عن التقدير » . وقد رحب الشعب بوجه عام بهذا الإنعام الذى جاء مكافأة لرجل قضى سنوات طوالا يخدم مليكته وأمته .

أما فى البرلمان الجديد فقد امتازت معارضة دزرائيلى بطابع التحفظ مما أدهش الكثيرين ، وحمل أعوانه على التساؤل ، وأشاع التذمر بين أنصاره . ولكنهم جميعاً فاتهم أن الرجل قائد يعرف كيف يضع الخطط اللازمة ، فتارة يشن الهجوم ،

وتارة يلتزم مواقعه ، وعينه ترقب خطوط العدو . والواقع ، أن دزرائيلى رأى خصمه مستنداً إلى أغلبية برلمانية كبيرة ، وأدرك عقم محاولة زحزحة الحكومة سريعاً ، وفضل أن يدعها تقدم ما لديها من مشروعات وعدت بها ، علماً منه أن فترة النشاط لا بد أن تنتهى وهنا تحين الفرصة الصالحة . ودزرائيلى خير من يجيد الانتظار ، وخير من يؤمن بالزمن وتصاريفه إذا أحسن الفرد الترقب والانتفاع . وقد انتهز فرصة ما يشبه الفراغ ، فعمد إلى إخراج قصته لوثير Lothair التى لقيت رواجاً منقطع النظير ، وترجمت إلى معظم اللغات الأوربية ، وعظم الطلب عليها فى الولايات المتحدة ، وصارت حديث القوم فى كل مكان . ذلك لأن الناس لم تعتد أن ترى رئيساً للوزارة البريطانية يشغل وقته ، بعد اعتزال المنصب ، فى كتابة رواية طابعها السخرية وروح الفكاهة . وبطل القصة شاب من النبلاء تنازع روحه قوات ثلاث تمثلها كنيسة روما ، والثورة الدولية ، وتقاليد المجتمع الإنجليزى . ويظهر لنا المؤلف أن الجمعيات السرية ونواحى نشاطها الدولى ، وكنيسة روما ودعاويها وأساليبها ، والصراع الأبدى بين العلم والإيمان — هذه هى القوى التى تعمل تحت مظهر الأرستقراطية الإنجليزية . وبرغم نجاح القصة العظيم فإن رجال السياسة لم ينظروا إليها بعين الرضاء ، وعجبوا ، بل وأسفوا ، لإقدام رئيس وزراء سابق على عمل من هذا القبيل بعد أن بلغ

هذه السن ! ووصل الأمر إلى حد التساؤل عما إذا كان من الخير ، أو المستطاع ، الركون إلى هذا الرجل والثقة به .

مرت الأيام ، وإذا بدزرائيلى يخلع رداء التحفظ ، ويعود إلى العمل والنشاط . فلما حدثت مسألة السفينة ألباما ومشكلة التحكيم ، تدخل فى المناقشة فى المجلس ولكنه رأى من الواجب الوطنى أن يؤيد موقف حكومة غلادستون فى ذلك الظرف الدقيق ، وأكسبه موقفه هذا سمعة طيبة أخذت تعلو تدريجاً فى البلاد ، وترفع معها من شأن المحافظين . وقد دلل الشعب على تقديره للرجل فى مناسبات عدة ففى سنة ١٨٧١ انتخبه شباب اسكتلنده الحرة مديراً لجامعة جلاسكو . وعندما توجه ولى العهد إلى كنيسة سنت بول فى فبراير سنة ١٨٧٢ ليرفع الشكر لله على شفائه من مرضه ، استقبل الجمهور دزرائيلى بحماس ، بينما كانت مقابلته لغلادستون تشوبها روح العداء . وحدث أن توجه وزوجته إلى منشستر فى زيارة أصدقاء لهما ، فوفدت عليه وفود المحافظين من كل مكان فى المنطقة . وهذه المظاهر ذات الدلالة البالغة إن هى فى الحقيقة إلا ثمرة جهوده التى بذلها — أثناء فترة الركود والتحفظ — فى سبيل تنظيم أداة الحزب ، وعمل الدعاية له فى طول البلاد وعرضها ، فأنشأ هيئة مركزية فى هوايتهول وزودها بنخبة من الأكفاء ، وحمل زعماء المحافظين فى مختلف الدوائر على تأليف لجان فرعية على أساس ديموقراطى وعلى أن تضم

الأرستقراطية وأرباب المهن والحرف . وكان المشرف على الحركة چون إلدون غورست ، ولكن دزرائيلى كان يولى الموضوع عنايته واهتمامه . ويضع معلوماته وخبرته تحت تصرف غورست ، ولصالح الحزب . وهكذا أخذ الزعيم يستعد لمعركة الانتخاب القادمة .

كانت لادى بيكنز فيلد تشكو سرطاناً بالمعدة منذ عام ١٨٦٦ ، وإن جاهدت فى إخفاء الحقيقة عن زوجها الذى كان على علم بالأمر ، ولكنه كان يعمل غاية جهده للتهوين من شأن مرضها . اشتدت وطأة المرض عليها يوماً بعد آخر ، وأخيرا لفظت أنفاسها الأخيرة فى الرابع عشر من سبتمبر سنة ١٨٧٢ . هكذا انقضت فى هذا العالم ، هذه الشركة الروحية التى دامت زمنا طويلا ، وزالت من الوجود زوجة كانت تؤمن بزوجها فى الوقت الذى ينكره الآخرون ، وتحبوه بعطفها وتشجيعها إذ ينفر منه أو يشك فيه الغير ، وترفه عنه متاعب الحياة حين يأوى إلى الدار فيجد النظام والهدوء ، وتبسم له حين يعبس له الدهر فيستمد من بسمتها وحنانها قوة تعاونه على مجالدة الخطوب واستئناف النضال . زالت الزوجة التى ارتقت معه درجات سلم المجد والشهرة ، وانهار السند الذى كان يعتمد عليه ، وخيم السكون على ذلك البيت بعد أن زال منه صوتها . وانتقل دزرائيلى إلى مكان آخر للسكنى ، يعيش وحيدا منفردا ، إلا مع كاتم سره المخلص الأمين . فكان يدخل إلى حجراته فيلمس صمتا وسكونا ، ويرجع بذاكرته

إلى داره الأولى وقد خلت من أهلها . . . ولكنه القدر ، ولكنها الحياة ، وكل نفس ذائقة الموت ، فصبر جميل ، والله المستعان .

رجل آخر ربما خر صريعا من الحزن وهو فى تلك السن ولكن دزرائيلى عاد — كما بدا لمن حوله — أكثر نشاطا عن ذى قبل ، حتى كأنما استمد من نكبته قوة جديدة . أخذت حكومة غلادستون تترنح وتقرب من السقوط ، حتى أنها هزمت مرة فى المجلس وقدمت استقالتها . فدعى دزرائيلى ولكنه أبى قبول المهمة . لقد شاهد المحافظين يزدادون قوة ، ويعلو اسمهم ، ويكسبون ما تخسره الحكومة فى الانتخابات الفرعية ، وأدرك أن المستقبل لهم . لهذا رفض أن يتولى الحكم مع مجلس ليست له فيه الأغلبية ، وآثر الانتظار واثقا أن البلاد ستعيده وقد منحته ثقتها وتأييدها . وإزاء هذا الرفض عاد غلادستون إلى الحكم ، كى يخرج منه بعد قليل . ومن العوامل التى أضعفت مركزه سياسة المحافظة على السلام ، وقبول مبدأ التحكيم فى كل ما يمس مصالح انجلترا ، حتى هبطت سمعة البلاد فى الخارج . سرى الاستياء إلى الرأى العام ، حتى أن أحد المسارح مثل غلادستون يستقبل وفدا من الصين جاء يطلب إليه التنازل عن اسكتلنده . أخذ رئيس الوزراء يفكر فى الأمر مليا ، وأخيرا اهتدى إلى حلول ثلاث : أن يتنازل عن ذلك الإقليم فى الحال ، أو ينتظر قليلا ثم يتنازل عنه ، أو يختار حكما للفصل

فى الموضوع . وفضلا عن هذا فقد استاءت الطبقة العاملة من غلادستون ، الذى برغم دعاويه وتصريحاته ، سلبهم حقوقا كانوا يريدون منها المزيد ، ذلك أن قانونا صدر فى سنة ١٨٧١ وبمقتضاه أصبحت مختلف الأعمال التى تعتمد عليها اتحادات العمال فى وقت الإضراب ، غير قانونية .

والحقيقة أن العامل الأكبر فى سقوط حكومة الأحرار أنها استنفدت ما فى جعبتها من إصلاحات ، ولم يعد لديها ما تقدمه ، بينما المحافظون يعدون بنواح شتى من الإصلاح الاجتماعى ، ورفع سمعة البلاد فى السياسة الخارجية ، مما اجتذب أنظار طوائف كثيرة من الشعب ، وبخاصة الطبقة العاملة التى ساءها ما أقدمت عليه الحكومة .

زادت هزائم غلادستون فى الانتخابات الفرعية ، ثم نشأ نزاع مع زملائه بسبب رغبته فى انقاص الاعتمادات الحربية والبحرية حتى ينفذ مشروعه لإلغاء ضريبة الدخل . وإزاء هذه الظروف قرر حل مجلس العموم والرجوع إلى الرأى العام . أراد غلادستون أن يكسب المعركة بأن وعد بالغاء الضريبة ، فلم يعبأ دزرائيلى بذلك وقبل التحدى بمثله ، فأعلن أن هذا الإجراء كان مما اقترحه المحافظون وعارضه خصومهم . أما عن تحسين أحوال الشعب فقد نادى به على أن يتم ذلك بالطريق الأقوم ، لا بواسطة التشريعات المرتجلة . ثم حمل على الحكومة

التى لم تبد نشاطا خلال السنوات الخمس السابقة فى السياسة الخارجية . أجريت الإنتخابات ، وأحرز المحافظون الأغلبية ، التى زاد فى أهميتها نجاحهم فى المدن الصناعية الكبرى . تولى الحزب الحكم وله أغلبية تزيد نحو ٥٠ عضوا على كافة الأحزاب الأخرى مجتمعة . وهكذا انتصر دزرائيلى فى النهاية ، وحقق الهدف الذى وضعه نصب عينيه ، إذ أعاد تكوين المحافظين على أساس شعبى ، وسار بهم فى الطريق الديموقراطى فكسبوا ثقة البلاد بعد نفى سياسى دام عهدا طويلا .

دعت الملكة دزرائيلى ، ذلك الرجل الذى وثقت به وأحبته وعطفت عليه . وعهدت إليه بتشكيل الوزارة ، ففعل شاكرا جميلها ، واعداً بتأييد عرشها ورفع شأن بلادها .

الفصل الثانى عشر

فى سبيل الإمبراطورية

فى وليمة عشاء تقابل فردريك جرينوود رئيس تحرير صحيفة Pall Mall Gazette مع المالى المعروف هنرى أوبنهيم الذى وصل حديثاً من القطر المصرى ، ومنه علم أن خديو مصر يتفاوض مع جماعة من الماليين الفرنسيين بشأن رهن أو بيع ما يملكه من أسهم شركة قناة السويس ، أدرك الصحافى أهمية ذلك النبأ . فتوجه فى ١٥ نوفمبر عام ١٨٧٥ إلى وزارة الخارجية ، وأنهى ما وصل سمعه إلى لورد دربى الذى تردد فى تصديق الخبر ، لعدم ورود ما يؤيده من القنصل البريطانى ، وإن وعد بابلاغ الأمر إلى رئيس الوزراء . أدرك دزرائيلى خطورة الموضوع وأهميته القصوى بالنسبة إلى الإمبراطورية البريطانية . لقد كانت انجلترا خلال القرن التاسع عشر حريصة على إبعاد نفوذ أى دولة أوربية عن مصر ، وعارضت فى حفر قناة السويس — خاصة وأن تنفيذ المشروع على أيدى الفرنسيين فيه تمكين لنفوذهم فى هذه البلاد.

ولكن فتح القناة للملاحة فتح أعين انجلترا إلى هذا الشريان المائى البالغ الأهمية بالنسبة إلى المواصلات الإمبراطورية حتى قيل إن وزارة دزرائيلى عهدت إلى آل روتشيلد بالسعى إلى شراء القناة. أما الذى دفع اسماعيل الى التفكير فى التصرف فى الأسهم فهو ارتباك المالية المصرية، بحيث تعين عليه الحصول على ما يقرب من ٤ ملايين من الجنيهات لدفع كوبونات الدين المستحقة في أول ديسمبر، وإلا اضطر إلى إعلان افلاسه كما فعل السلطان من قبل، وإذا كان اسماعيل لم يعتزم، فى أول الأمر، بيع الأسهم — كما قال للقنصل البريطانى — فالواقع أن رهنها لم يكن ليختلف عن البيع من حيث النتائج المترتبة عليه فى المستقبل، إذ لن تتمكن مصر من دفع مبلغ الرهن، وهنا تنتقل الأسهم إلى فرنسا التى تسيطر فى هذه الحالة على القناة سيطرة تامة. ولا نزاع أن هذه الخواطر جالت بذهن دزرائيلى الذى أبرق فى الحال إلى ستانتون يستوضحه، بادر القنصل بمقابلة نوبار باشا ثم الخديو نفسه، وألمح إلى أن بلاده لا يسعها أن تنظر بعدم الاكتراث إلى انتقال ملكية الأسهم إلى دولة أخرى. ثم طلب إيقاف المفاوضات حتى تتاح للحكومة البريطانية الفرصة فتقدم عرضا من قبلها، الأمر الذى رحب به الخديو كثيراً.

عرض دزرائيلى الأمر على الوزارة فى ١٧ نوفمبر فأقرت الموضوع من حيث المبدأ، ولذا نراه يكتب إلى الملكة فى اليوم

التالى يقول « يبدو أن الخديو ، وهو على شفا الإفلاس . راغب فى التخلص من أسهمه فى قناة السويس . . . إنها مسألة ملايين لعلها حوالى أربعة ، ولكنها تكسب من يحوزها نفوذا كبيرا فى إدارة القناة . إنه لمن الحيوية بمكان ، بالنسبة لسلطة جلالتك وقوتك ، أن تصبح القناة ملكا لانجلترا » .

توجه ستانتون إلى الخديو ، وأبلغه استعداد حكومته لشراء الأسهم . وعد الخديو ببيع الأسهم لانجلترا إذا لم يوفق إلى عقد قرض بضمانتها . وفى اليوم التالى اتفق مع بعض الماليين الفرنسيين على أن يقدموا له مبلغاً قدره ٨٥ مليونا من الفرنكات لمدة ثلاثة شهور بفائدة قدرها ١٨ ٪ ، وإذا ما عجز عن الوفاء انتقلت إليهم الأسهم ، وكذلك حصة مصر فى أرباح القناة وقدرها ١٥ ٪ . بدت الصعوبة فى الحصول على المال فى باريس ، وحاول دلسبس أن يحمل الدوق ديكاز ، وزير الخارجية الفرنسية ، على استخدام نفوذه ، ولكن هذا تردد فى الأمر ، واستطلع رأى الحكومة البريطانية التى أوضحت بما لا يحتمل الريب أنها تعارض فى انتقال ما تملكه مصر إلى الماليين الفرنسيين . إزاء هذه الصعاب المالية والمعارضة البريطانية أخفقت فكرة الاستدانة . وهنا وافق اسماعيل باشا على البيع . وقد واجهت الوزارة البريطانية مشكلة دفع الثمن فى أقرب وقت ، ولكن البرلمان فى عطلة . حدث أمر لا مثيل له ، إذ بعث دزرائيلى كاتم سره إلى الصديق روتشيلد

يطلب مبلغ أربعة ملايين من الجنيهات فى الغد ، سأل المالى الكبير عن نوع الضمان الذى يعرضه رئيس الوزراء ، ولما أجاب كورى « الحكومة البريطانية » قال على الفور « ستحصل على المبلغ المطلوب » . وقد يبدو على الرواية طابع القصة ، غير أن الذى لا شك فيه أن دزرائيلى خالف التقاليد الدستورية المرعية ، وعرض أموال الدولة لخطر الاشتراك فى عمل تجارى قد يعود منه ربح ، وقد تنجم عنه الخسارة . ولكن الرجل كان بعيد النظر : فهو واثق من مستقبل الشركة ، وهو فى الوقت ذاته يخدم مصالح بلاده . الحق ، إنه بمثل هذه الحوادث تكونت الإمبراطورية البريطانية !

وافق اسماعيل على العملية فى ٢٣ نوفمبر ، وجاء رد الحكومة البريطانية بالموافقة فى اليوم التالى ، واستطاع دزرائيلى أن يكتب إلى الملكة يقول « لقد تم الأمر ، وأصبحت ملكا لك يا سيدتى » . وجاءه الرد بأن « هذا حقا حادث عظيم وهام » ، وقد أحدث شراء الأسهم حماساً شديداً لدى الرأى العام . وهنأ الكثيرون دزرائيلى على ما وفق إليه ، وحتى دلسبس رحب بالعمل الذى تم فى خطاب للمساهمين ، وأبان أن تعاون انجلترا حادث موفق بصدد نجاح الشركة . وكتبت ولية العهد من برلين فى ٣٠ نوفمبر إلى الملكة تقول « . . . أرى لزاما على أن أهنئك على العمل الأخير الذى قامت به حكومتك . . . إنه لما يدعو إلى الاغتباط أن نرى كيف

تم العمل السليم فى الوقت المناسب . وإن كل فرد هنا يشعر بالسرور ، ويرجو أن يجلب ذلك الخير على انجلترا . وحتى بسمرك نفسه أعرب عن ذلك وبنفس المعنى ليلة أمس . . . » . ولما اجتمع البرلمان الإنجليزى دافع رئيس الوزراء عن شراء الأسهم بأنه من أعمال « السياسة العليا » . وذكر الأعضاء أن انجلترا من كبريات دول البحر الأبيض المتوسط ، وتملك معاقل تسيطر على مياه هذا البحر . ولما كانت قناة السويس احدى حلقات سلسلة الحصون الواقعة على الطريق إلى الهند ، فلا ريب أن شراء الأسهم فيه زيادة الاطمئنان إلى سلامة الملاحة الإمبراطورية . وليس أدل على الطابع السياسى لهذه العملية من قول صحيفة التيمس « إن الجمهور فى هذا البلد وغيره سينظر إلى هذا العمل . . . من نواحيه السياسية لا التجارية . سيعده مظاهرة وشيئاً أكثر من مظاهرة ، سيعده إعلاناً لنياتنا وشروعاً فى العمل على تحقيقها . إن من المستحيل أن نفكر فى شراء أسهم قناة السويس منفصلا عن علاقة انجلترا المستقبلة بمصر . »[1]

اتجه دزرائيلى بعد ذلك إلى تحقيق مشروع طالما جال بخاطره

---

(١) تيودور روزشتين : تاريخ المسألة المسألة المصرية ص ٩ (نقلا عن التيمس عدد ٢٦ نوفمبر) .

ألا وهو إضافة عبارة « إمبراطورة الهند » إلى القاب الملكة. قدم المشروع إلى البرلمان فواجه معارضة فى المجلس، كما انتقده جانب من الرأى العام، وسخطت عليه بعض الصحف وعلى رأسها التيمس. لقد جرت العادة أن تتفاهم الأحزاب على ما يتعلق بكرامة التاج ولكن دزرائيلى أهمل الاتصال بزعماء المعارضة فى هذا الموضوع. وقد اعترض البعض على المشروع بحجة أن لقب « امبراطور » تحوطه معان سيئة قد تنبت فى الأذهان، وأنه قد يسىء إلى لقب ملك أو ملكة انجلترا، وأن كندا وأستراليا قد تطالبان بنفس الأمر. وقد رد دزرائيلى مفنداً هذه الاعتراضات، وأبان أن اللقب لن يستعمل إلا فيما له علاقة بالهند، حيث ينتظر أن يكون له تأثير هام فى نفوس أهلها. أما عن كندا وأستراليا فمركزهما مختلف عن الهند إذ شعباهما من العنصر الإنجليزى نفسه. وأخيراً أقر المجلسان المشروع المقدم من الحكومة، والذى سبب غبطة كبيرة للملكة فكتوريا، وزاد من إعجابها برئيس وزرائها.

وفى أثناء المناقشة فى المشروع قام لو Lowe بالنقد الشديد قائلا إن انجلترا قد تفقد الهند، فقال دزرائيلى « إن السيد المحترم نبى، ولكنه دائما نبى الشر ». ولم يقف لو عند هذا الحد،

بل إنه صرح فى اجتماع خارج المجلس بما يحمل على الاعتقاد بان الملكة هى التى أوعزت إلى رئيس وزرائها بتقديم هذا المشروع، وعد هذا عملا غير دستورى. وقد هاجم دزرائيلى خصمه هجوما عنيفا فى البرلمان على هذا الاتهام، وأبدى عجبه، أو استياءه، لصدور تصريح غير صادق كهذا من رجل سبق أن كان وزيرا فى حكومة جلالة الملكة. وقد كان الرد قاسيا وحازما حتى كتب دزرائيلى إلى لادى شسترفيلد يقول عن لو (إنه فى الوحل، وها أنا أتركه فى مكانه هذا.)

الفصل الثالث عشر

السلم مع الشرف

شاهد القرن التاسع عشر نهضة قومية بين شعوب البلقان ، واشتد ساعد الحركة بعد أن أتمت كل من إيطاليا وألمانيا وحدتها. وبفضل تشجيع الروسيا التى ، إلى جانب عطفها على الصقالبة ، كانت ترمى إلى تمزيق الدولة العثمانية . والوصول إلى الأستانة والمضايق ، وإقامة دويلات بلقانية تدين لها بالتحرير والاستقلال . وفى يوليه ١٨٧٥ شبت الثورة فجأة فى البوسنه والهرسك، وأعلنت الدولة العثمانية إفلاسها فى الشهر التالى . سارعت النمسا والروسيا وألمانيا إلى إرسال « مذكرة أندراسى » تطلب فيها قيام الباب العالى ببضع إصلاحات . فساء هذا العمل دزرائيلى ، وتردد فى الانحياز إلى الدول الثلاث ، فلما رجته تركيا الموافقة فعل ذلك قائلا : « لانستطيع أن نكون أتراكا أكثر من السلطان . » ، وإذ لم تؤد المذكرة إلى أية نتيجة عرض بسمرك على الدول أن تطالب السلطان بعقد هدنة مع الثوار ، وتعمير البيوت المخربة . ولكن

الوزارة البريطانية أوجست خيفة من نوايا الروسيا خاصة، فأبت الموافقة على ماعده رئيسها «قفزة فى الظلام»، وبادرت بإرسال الأسطول الإنجليزى إلى خليج بسيكا. وبرغم هذا تحرج الموقف فجأة إذ أعلنت صربيا الحرب على تركيا (٣٠ يونيه ١٨٧٦)، وحذا حذوها الجبل الأسود فى اليوم التالى مباشرة. أما كيف حدث ذلك فلأن «العالم لسوء الحظ» — كما قال دزرائيلى فى البرلمان «لا يتكون من أباطرة وحكومات فحسب، بل يتكون كذلك من جمعيات سرية ولجان ثورية». ثم اشتد تطور الموقف حين وصلت الأنباء بالمذابح التى قيل إن الأتراك ارتكبوها ضد البلغار. تردد رئيس الوزارة البريطانية فى تصديق الروايات التى أذاعتها إحدى الصحف إذ لم يصل إليه خبرها من المصادر الرسمية. ولكن الرأى العام ثار ثورة عنيفة، وأخذ الجميع يطالب الحكومة بعمل حازم. وقد استغل غلادستون الفرصة فنشر مؤلفه الصغير عن المذابح البلغارية وطالب حكومته أن تتعاون مع الدول الأوربية الأخرى للقضاء على كيان الدولة العثمانية فى أوربا. وقد أحدثت عبارات الرجل تأثيراً عميقاً فى الرأى العام، وعلق بيكونزفيلد على المؤلف بقوله فى خطاب إلى دربى «ستصدر الأجيال القادمة حكمها العادل على غلادستون، ذلك المجنون الذى لا مبدأ له. إنه

لمزيج شاذ غريب من الحســـد وحب الثأر والنفاق والتعلق بالخرافات ».

فى ١١ أغسطس سنة ١٨٧٦ وقف دزرائيلى فى مجلس العموم يرد على هجوم عنيف من جانب المعارضة بسبب مسألة المذابح البلغارية . ولما انتهى من أقواله غادر مكانه ، ولاحظ البعض أنه أطال النظر فى جنبات المجلس بطريقة غير مألوفة . لقد كانت الليلة آخر عهده بهذا المكان ، إذ صدر فى اليوم التالى الإنعام السامى عليه بلقب إيرل بيكونزفيلد . وبذا انتقل إلى مجلس اللوردات ! لقد كان الرجل على حق إذ أطال النظر فى نواحى المجلس الذى ظل عضواً فيه مدى أربعين عاماً . ولاريب أنه تذكر فى تلك اللحظة الرهيبة خطابه الأول وما لقيه من سخرية ؛ وعادت إلى ذاكرته صورة الصراع الرهيب بينه وبين سير روبرت بيل ؛ ثم معارك السياسة والبلاغة التى نشبت بينه وبين غلادستون .

أما عن الموقف الدولى فقد عقد مؤتمر للنظر فى المشكلة الشرقية ، فلم ينته إلى نتيجة بسبب إباء الباب العالى الإصلاحات التى اقترحها المؤتمر . وظلت الروسيا ترقب الأمور حتى يكمل استعدادها ، وأخيراً أعلنت الحرب على الدولة العثمانية فى ٣٠ أبريل سنة ١٨٧٧ . ولم يقف بيكونزفيلد ساكنا . لقد كان يدرك خطورة

الحال ، ويعلم أطماع الروسيا ، ويخشى نتائج الحرب . ولكنه كان مصمماً أن يحول دون فوز الروسيا ببغيتها كاملة ، ولذا حمل وزير الخارجية لورد دربى على أن يبعث إلى هذه الدولة بما يصح اعتباره إنذار نهائى يذكرها بالابتعاد عن قناة السويس والخليج الفارسى وبوغاز البسفور ، لأنها من المناطق ذات الأهمية الحيوية بالنسبة إلى مصالح بريطانيا العظمى . وأكثر من هذا نال موافقة الوزارة على إعلان الحرب على الروسيا إن أقدمت على احتلال الأستانة . لقد كان الرجل جاداً بشأن السياسة التى يعتزم السير عليها فيما عده فى صالح بلاده ، ولذا جاءت العبارة التالية فى خطاب العرش فى ٢١ يناير سنة ١٨٧٨ «ولا أستطيع أن أخفى عن نفسى أنه إذا طالت الأعمال الحربية لسو الحظ ، فقد يقع حادث غير متوقع يجعل لزاماً علىّ أن أتخذ بعض الإجراءات التى تقضى بها الحيطة . » ولم يكتف بيكونز فيلد بذلك بل حمل الوزارة على إرسال أسطول إلى البوغازات ، الأمر الذى لم يوافق عليه كل من لورد كارناڤون ولورد دربى فقدما استقالتهما ، ولكن مالبث الأخير أن عاد بعد قليل إلى جانب زملائه .

برغم استماتة الأتراك فى الدفاع حلت بهم الهزيمة وأرغموا على توقيع معاهدة سان ستفانو فى ٣ مارس ١٨٧٨ ، التى أرسلت

صورتها إلى الحكومة البريطانية بعد ثلاثة أسابيع تقريباً. أثارت شروط الصلح الاستياء، وتقرر عقد مؤتمر دولى للنظر فيها. ولكن الروسيا صرحت أن لها مطلق الحرية فى قبول أو رفض قرارات المؤتمر. وقد سخط بيكونزفيلد على التصريح وعده شبه إنذار، وتوقع قيام حالة يتعذر فيها منع نشوب الحرب، حتى أنه كتب إلى Gathorne Hardy يقول: «إننا نتجه صوب الحرب، ولكن إذا أبدينا البسالة والعزم فسنحصل على السلام، ونملى شروطه على أوربا». واجتمعت الوزارة البريطانية وقررت دعوة الاحتياطى، وجلب قوة من الهنـــد للاستيلاء على قبرص والأسكندرونة. غير أن لورد درب أبى الموافقة على هذه السياسة الرامية إلى إحتلال مواقع أخرى على طراز جبل طارق، ولذا بادر بتقديم استقالته. وهكذا افترق الصديقان القديمان نهائياً. ومن المؤلم أن يقوم درب بعـد ذلك بمهاجمة صديقه القديم فى أكثر من مناسبة، وبلهجة امتازت بقدر كبير من العنف والقسوة.

إزاء هذا الموقف الحازم رضخت الروسيا، إذ لم تكن راغبة فى الاشتباك فى حرب مع الإمبراطورية البريطانية، فوافقت على إنقاص المساحة التى قررتها معاهدة سان ستفانو لبلغاريا إلى مايقرب من النصف. وفى الوقت نفسه عقد بيكونزفيلد اتفاقا سرياً مع

الدولة العثمانية تنازلت فيه عن جزيرة قبرص لانجلترا . وفى ١٣ يونيه افتتح مؤتمر برلين .

توجه بيكونزفيلد إلى العاصمة الألمانية ، ونزل فى فندق Kaiserhof ، حيث وجد فى انتظاره كاتم سر بسمرك يبلغه رغبة سيده فى مقابلته فى أقرب فرصة . وكذلك ألفى المائدة مليئة بطاقات الزهور المحببة إلى نفسه ، بعثت بها كريمة ڤكتوريا ، حتى أنه كتب إلى الملكة يقول « لقد أغدق ولى العهد والأميرة مظاهر العطف على لورد بيكونزفيلد . ومما يزيد فى شعور الغبطة بها أنه يشعر أنها راجعة ، إلى حد ليس باليسير ، إلى إيحاء من يدين له بكل شىء » .

دارت المفاوضات ، وفجأة تلبد جو المؤتمر بالغيوم بسبب الخلاف على الحدود البلغارية . تعذر الاتفاق ، وتحدث الكل عن احتمال الفشل . وهنا ألقى بيكونزفيلد قنبلته ، إذ أمر بإعداد قطار يقله ومن معه إلى كاليه ، لأنه كان مصمما أن يفض المؤتمر إذا لم تقبل وجهة نظر بريطانيا العظمى وتحترم إرادتها . توجه بسمرك يسأل إن كان فى الإمكان إيجاد حل وسط ، فرفض بيكونزفيلد ، وهنا سأل المستشار الألمانى « هل لى أن أعد هذا إنذاراً نهائياً ؟ » فكان الرد بالإيجاب . خرج بسمرك ، وسويت

المسألة طبقاً لرأى انجلترا ، وأبرق لورد بيكونزفيلد إلى الملكة يقول « عادت تركيا من جديد إلى أوربا » فجاءه الرد بأن « كل هذا راجع إلى نشاطك وحزمك » .

عاد لورد بيكونزفيلد إلى لندن حيث وجد ميدان الطرف الأغر يموج بالجموع المحتشدة لتحيته ، ودام الهتاف طويلا فى داوننج ستريت حتى أطل على الألوف من القوم قائلا « أظن أننا أتينا كم بالسلام مع الشرف » .

الفصل الرابع عشر

نهاية قصة

عاد دزرائيلى من برلين يحوطه المجد ولكن قاتل الله السياسة إذ لا صديق لها . فقد توالت أحداث أفقدت بيكونزفيلد ما أحرز من سمعة طيبة . ذلك أن الزراعة البريطانية انتابتها أزمة عنيفة ، وبذا تحقق أخيراً قول أنصار الحماية إن الزراع الإنجليز لا يستطيعون الحياة فى جو المنافسة الطليقة . وكذلك أخذ الرأى العام يضج من سياسة الحكومة الخارجية والاستعمارية التى أدت إلى الاشتباك فى حروب مع الأفغان وقبائل الزولو فى جنوبى إفريقية ، وإن كانت هذه السياسة قد عادت فى المستقبل بالخير على الإمبراطورية البريطانية . وقد استغل غلادستون هذه الظروف وطاف البلاد يدعو إلى تحطيم المحافظين ورئيسهم فى الانتخابات القادمة . أخذ يحدث القوم قائلا : « لقد مرت عليكم سنوات خمس لم تسمعوا خلالها سوى الحديث عن مصالح الإمبراطورية البريطانية ، فماذا كانت النتيجة ؟ زادت مساحة الروسيا واشتد عداؤها ، وها أنتم ترون أوربا فى اضطراب ، والهند فى حالة حرب ، وإفريقية تسيل

فيها الدماء ! وما ذلك إلا لأن العالم فيه أشياء غير الضرورات السياسية ، هذه هى الضروريات الأخلاقية

أجريت الإنتخابات العامة فى عام ١٨٨٠ ومنى فيها المحافظون بهزيمة شنيعة ، وهكذا ثبت قول دزرائيلى من قبل إن الرأى العام تكونه الصحافة وتخلقه الساسة ، وهكذا تحقق رأى من رمى الجماهير بالتقلب وعدم الاستقرار . ولكن الهزيمة لم تقض على شجاعته ، ولم تؤثر على نفوذه فى حزب المحافظين ، فظل موضع التقدير والإكبار .

فى أواخر مارس من عام ١٨٨١ أصيب لورد بيكونزفيلد ببرد اضطره إلى ملازمة الفراش ، وأوضح الفحص الطبى أنه يشكو التهاباً فى شعب الرئة يصحبه ربو متقطع . اشتدت العلة ولكنه لم يشعر بأدنى خوف من المجهول ، حتى أنه حدث الأطباء المشرفين على علاجه قائلا « إنى أفضل الحياة ، ولكنى لا أرهب الموت » . وقد ظل حتى آخر لحظة محتفظاً بثبات نفسه ورباطة جأشه . أما الملكة فقد ساورها القلق الشديد ، وأخذت تتلقى يوماً بعد يوم التقارير عن صحة الرجل الذى أحبها وأخلص لها فوثقت به . وفى كل يوم كانت تأمر بإرسال طاقات الزهر الذى يميل إليه .

ظل المريض يغالب الداء فلم يغلبه ، وبذل رجال الطب غاية جهدهم فما وفقوا . وفى الساعة الثانية من صباح يوم ١٩ أبريل دنت النهاية بسرعة . بدت من المريض حركة كأنما أراد أن يتكلم ،

فمال أصدقاؤه عليه ليتعرفوا رغبته، ولكنهم رفعوا أنفسهم واجمين. لقد انتهى دزرائيلى وغادر عالم الكفاح إلى عالم الهدوء، وانتقل من دار الفناء إلى دار البقاء.

عرض غلادستون باسم الحكومة البريطانية أن تشيع الجنازة رسمياً وأن يكون المثوى الأخير لمنافسه السابق مقبرة وستمنستر، ولكن بيكونزفيلد كان قد أوصى بأن يرقد رقدته الأخيرة إلى جانب مارى آن، وبذا يجمع التراب بين جسديهما. نفذت الوصية، وورى الجثمان فى مقره الختامى بأشد مظاهر البساطة، ولم يشهد هذه الجنازة سوى البرنس أوف ويلز ونفر قليل من أصدقاء الفقيد. وأرسلت الملكة ڤيكتوريا إكليلين من الزهر ليوضعا على النعش، وقد خطت على أحدهما بيدها « عنوان المحبة الخالصة والصداقة والتقدير ». وهكذا انتهت حياة السياسى العظيم، وقصة الرجل الذى كانت حياته كلها كفاح، ودروس وعبر ما أجدرنا تدبرها.

تقدم غلادستون إلى البرلمان باقتراح إقامة تمثال لرئيس الوزارة الراحل والبرلمانى الممتاز، فى مقبرة وستمنستر. وهكذا قضى الموت على مافى النفوس من خلاف وتنافس. لقد حارب غلادستون الفقيد عهداً طويلا، وكان يقول للبلاد إن سبب النكبات التى أصابتها هو أنها أسلست قيادها لدزرائيلى وبذا استحقت غضب الله عليها، ولكنه وقف ذلك اليوم فى المجلس يبرر اقتراح تخليد الذكرى

بأن الفقيد قد لعب دوراً تاريخياً هاماً ، وأن أعماله لقيت فى حينها التأييد الدستورى الكامل من السلطة التشريعية . وبذا خلص زعيم الأحرار نفسه من موقف حرج بلباقة . وفى مجلس اللوردات وقف سالسبورى فألقى رثاء غاية فى البلاغة والروعة . أما الملكة فأمرت بأن يقام ، على نفقتها الخاصة ، نصب فى كنيسة الجهة ، وقد نقشت عليه عبارات منها :

أقامت هذا النصب

مليكته وصديقته الوفية

فكتوريا الملكة والإمبراطورة

« إن الملوك يحبون من ينطق بالحق » .

Strachey, John : Socialism, Practice + theory

ثبت بالمصـــادر

1. Bagehot (Walter) : The English Constitution.
2. Baring (Evelyn) (Lord Cromer) : Disraeli. 1912
3. Beer (M) : A History of British Socialism. 1940
4. Cambridge Modern History.
5. Clapham (J.H.) : Economic History of Great Britain.
6. Crabites (Pierre) : The Spoliation of Suez. 1940
7. Fay (C.R.) : Life and Labour in the Nineteenth Century. 1643.
8. Froude (A.) : Life of Lord Beaconsfield.
9. Keith (Arthur Barriedale) : The Constitution of England from Queen Victoria to George VI, 2 vols. 1940.
10. Maurois (André) : Disraeli.
11. Monypenny and Buckle : Life of Disraeli, 2 vols. 1929.
12. Mowat (R.B.) : A History of European Diplomacy (1815 — 1914). 1933.
13. Muir (Ramsay) : A Short History of the British Empire. (vol. II)
14. Oman (Charles) : A History of England. 1910
15. Queen Victoria : Letters.
16. Sabry (M) : L'Empire Egyptien sous Ismail. 1933
17. Strachey (Lytton) : Queen Victoria.
18. Trevelyan (George Macaulay : British History in the Nineteenth Century and After (1782—1919). 1937.

مطبوعات مكتبة النهضة المصرية

		مليم
صديق العائلة	للدكتور مصطفى الديوانى	٥٠٠
حيـاة الطفل	« « «	٥٠٠
الحقوق	للأستاذ عبد السلام ذهنى بك	١٠٠٠
أساطير الحب والجمال	« دريني خشبه	٣٠٠
على حافة العالم الأثيرى	« أحمد فهمى أبو الخير	٤٠٠
السيكولوجيا والروح	« « « «	٢٢٠
الجلنـار	« توفيق أحمد البكرى	١٥٠
الأسلوب	« أحمد الشايب	٢٠٠
تاريخ الشعر السياسى	« « « «	٤٠٠
إصلاح أداة الحـكم	« محمد عبد الرحيم عنبر	٢٢٠
الزمان الوجودى	للدكتور عبد الرحمن بدوى	٥٠٠
فقه اللغة	« عبد الواحد وافى	٥٠٠
علم اللغة	« « « «	٥٠٠
الذاكرة والنسيان	للأستاذ أحمد عطية الله	٤٥٠

AUC - LIBRARY

DATE DUE

DEC 16 [illegible]

i15010031
b13180061

10000105333

DA
564
B3
B3x